الباب السادس

تدوين الشعر

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
الكتابة في صدر الإسلام

أبيات نصر بن حجاج

رغم ضحالة الدلائل التي تشير إلى استعمال الكتابة في تدوين الشعر في صدر الإسلام، فإن استعمال الكتابة في تدوين الشعر في صدر الإسلام، واضح كل الوضوح، فهذا نصر بن حجاج يكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأبيات منها:

لَعَمْرِي لَئِنْ سَيَّرْتَني أَوْ حَرَمْتَني ... ومَا نِلْتَ مِنْ عِرْضِي عَلَيْكَ حَرَامُ

فَأَصْبَحْتُ مَنْفِيّاً عَلَى غَيْرِ رِيبَةٍ ... وَقَدْ كَانَ لِي بِالْمَكَّتَيْنِ مُقَامُ

أَإِنْ غَنَّتِ الذَّلْفَاءُ يَوْماً بِمُنْيَةٍ ... وَبَعْضُ أَمَانِيِّ النِّسَاءِ غَرَامُ

ظَنَنْتَ بِيَ الظَّنَّ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ ... بَقَاءٌ وَمَالِيَ جُرْمَةٌ فَأُلَامُ

وقد تبين لنا استعمال الكتابة في جلاء منقطع النظير، في العبارات التالية، عندما نادى والي البصرة من قِبَل عمر بن الخطاب:

«من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين، فليكتب، فإن البريد خارج، فكتب نصر...» وذكر الأبيات ثم العبارة «فلما قرأ عمر الكتاب.»[1].

---

(١) السفاريني، غذاء الألباب، جـ١، ص ص١٧٤ ـ ١٧٥؛ وانظر: السبكي، طبقات الشافعية، جـ١، ص ص١٤٧ ـ ١٤٨. وانظر الخبر أيضاً في: العسكري، الأوائل، مج١، ص ص٢٣٠ ـ ٢٣١. ومن ذلك الموقف في زمن معاوية مع قصيدة حسان بن ثابت التي يقول فيها: =

الغموض الذي يحيط بالكتابة في أوائل العصر الأموي

أبيات أبي العيال

ولكن يجب التأكيد هنا على أن كتابة الشعر كانت موجزة، ومحدودة للغاية، وعلى نمط أبيات نصر تلك. وإذا وضعنا في تصورنا التطور السريع الذي حصل لتعليم الكتابة، نجد أن كتابة الشعر، أخذت طريقها في المواقف الرسمية أيضاً، مثل موقف أبي العِيَال، حينما كتب لمعاوية، وهو محصور وأصحابٌ له في أرض الروم، أبياتاً منها:

مِنَ أبي الْعِيَالِ أَخِي هُذَيْلٍ فَاسْمَعُوا ... قَوْلِي وَلاَ تَتَجَمْجَمُوا مَا أُرْسِلُ
أَبْلِغْ مُعَاوِيَةَ بْنَ صَخْرٍ آيَةً ... يَهْوِي إِلَيْهِ بِهَا الْبَرِيدُ الأَعْجَلُ
وَالْمَرْءَ عَمْراً فَأْتِهِ بِصَحِيفَةٍ ... مِنِّي يَلُوحُ بِهَا كِتَابٌ مُنْمَلُ
وَإِلَى ابْنِ سَعْدٍ إِنْ أَوَخْزُهُ فَقَدْ ... أَزْرَى بِنَا فِي قَسْمِهِ إِذْ يَعْدِلُ
فِي الْقَسْمِ يَوْمَ الْقَسْمِ ثُمَّ تَرَكْتُهُ ... إِكْرَامَهُ وَلَقَدْ أَرَى مَا يَفْعَلُ
وَإِلَى أُولِي الأَحْلاَمِ حَيْثُ لَقِيتُهُمْ ... أَهْلِ الْبَقِيَّةِ وَالْكِتَابُ الْمُنْزَلُ(١)

= حَارِ بْنَ كَعْبٍ أَلاَ الأَحْلاَمُ تَزْجُرُكُمْ ... عَنِّي وَأَنْتُمْ مِنَ الْجُوفِ الْجَمَاخِيرِ
وقوله للحارث بن معاذ: «أكتبها صكوكا وألقها إلى غلمان الكتاب». ديوانه جـ١ ص٢١٩، وطلب طلحة رضي الله عنه كتابة قصيدة أعجب بها. الزمخشري، الفائق جـ١ ص ٦٧٧. وانظر تدوين الأنصار، لما كان بينهم وبين المشركين من قريش، الأغاني، جـ٤، ص ص١٤٠ ـ ١٤١.

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، جـ١، ص٤٣٣، المنمل: المتقارب الخط. وقد ذكر السكري: «فكتب إلى معاوية بكتاب، فقرأه على الناس، فقال»، ثم ذكر الأبيات، وعدتها ستة عشر بيتا. وانظر خبر الرسالة التي كتبها رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يشكو إليه من رجل يختلف إلى النساء الغائب أزواجهن، وضمّنها بيتين من الشعر، الزبيدي، التاج، عقل. وانظر خبر الرسالتين المتبادلتين بين سعد بن أبي وقاص وعمر بن الخطاب، وتضمين رسالة سعد أبياتا لبشر بن ربيعة الخثعمي وعمرو بن معد يكرب؛ الأغاني، جـ١٥، ص ص١٨٩ ـ ١٩٠. وكذلك الأبيات التي ضمنها كل من مروان بن =

obeikandi.com

ورغم قبولنا لهذه الأقوال، على أنها شاهد على كتابة الشعر في صدر الإسلام حتى بدايات العصر الأموي، فإننا نرى أن كثيراً من هذه الأقوال يمكن تفسيرها على أنها لا تخرج في مجملها عن الفهم السابق لمعاني «كتب،» أي: أرسل قولاً شفوياً، إلا ما نُص صراحة على استعمال الكتابة فيه، لدواعي ظروف الكتابة آنذاك، ولعل مثال ذلك، الأبيات التي كتبها حسان بن ثابت إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بشأن تَنَكُّر خالد بن الوليد للأنصار، عندما فتح اليمامة. ومما يرجح ما نذهب إليه في عدم استخدام الكتابة في الشعر في الفترة الجاهلية على الأقل، أن الشعر، رغم كتابته في العصر المتأخر، فقد ظل غير مشكول حتى بدأ الخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ) في ضبطه. يقول أبو عمرو الداني:

«قال أبو عمرو (يعني نفسه): وترك استعمال شكل الشعر، وهو الشكل الذي في الكتب الذي اخترعه الخليل»[١]. وهذا نص صريح على أن الشعر المكتوب، هو الشعر في كتب العلماء، حيث دلهم الخليل بعد ذلك على استعمال الضمة والكسرة والفتحة؛ وهذا يعني من طرف آخر أن الشعر الذي طلب جرير تدوينه، أو كتب بعضه في العصر الأموي، لم يكن مشكولاً، مع تكرار التأكيد على وضع الكتابة في هذا العصر.

= الحكم ومعاوية رسالتيهما بشأن رجل من عذرة وزوجه، النويري، نهاية الأرب، جـ٢، ص ص١٥٧ ـ ١٥٨. وكذلك الأبيات المتبادلة بين البختري والمهلب بن أبي صفرة؛ القالي، الأمالي، جـ٢، ص ص٣٤٧ ـ ٣٤٨، والأبيات التي كتب بها أحد بني عجل لابنة عمه وردها عليه، المصدر نفسه، جـ٢، ص ص٣٥ ـ ٣٦. وانظر الأبيات المتبادلة كتابة بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومعاوية في حرب صفين المنقري، وقعة صفين، ص ص٦٢ ـ ٦٦.

(١) ديوانه، جـ١، ص٤٥٩.

(٢) الداني، المحكم في نقط المصاحف، ص٧.

obeikandl.com

بدء وضوح الصورة في استخدام الكتابة في الشعر في أوائل العصر الأموي

وتأخذ صورة الكتابة في الإسلام تتضح شيئاً فشيئاً، بعد أن انتشرت الكتابة، ولم تعد مقصورة على عدد من الناس، وبعد أن تهيأت وسائل الكتابة نفسها. ومن أدلة ذلك ما قاله يحيى بن نوفل اليماني في أبان بن الوليد البجلي كاتب ديوان الضياع زمن الحجاج:

أَبَعدَ الدَّوَاةِ وَبَعدَ الطُّرُوسِ وَبَعدَ انكِبَابٍ عَلَى الدَّفتَرِ[1]

بَل عَيَّرَ الفرزدق الحجاجَ كونَه مُعَلِّماً في قوله:

زَمَانَ هُوَ العَبدُ المُقِرُّ بِذُلَّةٍ يُرَاوِحُ صِبيَانَ القُرَى وَيُغَادِي[2]

ورغم أن هذا يدل على أن الكتابة أصبحت شائعة، توافرت فيها أدواتها، ولم تعد مقصورة على عدد محدود من الناس؛ فإنه يدل، من ناحية أخرى، على نظرة البدوي الدونية لصنعة الكتابة في هذا الزمن المتأخر. فلقد كانت الكتابة، على العموم، صناعة من الصناعات، والصناعة مذمومة عند العرب[3]، ومن هنا وجدنا ابن ميادة، أو مِلحة الجَرمي، ينسب الكتابة إلى كُتّابِ ملكٍ من ملوك الأعاجم في قوله، مشيراً في الوقت نفسه إلى اسوداد لون الكتابة:

كَأَنَّ قُرَادَي زَورِهِ طَبَعَتهُمَا بِطِينٍ مِنَ الجَولانِ كُتَّابُ أَعجَمِ[4]

وتبلغ درجة الاحتقار لهذه الصناعة في قول جرير:

---

(١) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج٢، ص٧٤٢.

(٢) المرزوقي، شرح ديوان، الحماسة، ج٢، ص٦٧٩.

(٣) الجاحظ، رسائل الجاحظ، «ذم أخلاق الكتاب»، ص٢٠٠.

(٤) اللسان، «عجم». وانظر: المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، ج٤، ص١٧٤٩.
قرادي زوره: حلمتا الثديين، زوره: صدره. الطبع: الختم.

obeikandi.com

إذا نَـزَعُـوا الإِزَارَ عَـنِ اسْـتِـهَـا   هَـذِي دَوَاةُ مُـعَـلِّـمِ الْـكُـتَّـابِ[1]

ومع ذلك، يبدو أن انتشار الكتابة، كان أيضاً مقصوراً على الحالات الرسمية والبيئات الحضرية. أما في البادية، فإن انتشار التعليم بها ـ كما هو متصور ـ لم يكن سريعاً ـ ولا بد أن الرواية كانت هي المصدر الرئيس لنقل الشعر، كما كانت الحال قبل الإسلام.

فلقد ظل الشعراء يصطحبون رواة، كما كان يفعل سابقوهم، فهذا الفرزدق. له رواة منهم: عمرو بن عفرى الضبي[2]، وذو الرمة له راوية: هو عصمة[3]، وجرير له راويته: هو أبو الحسين[4].

تدوين الشعر في أواخر العصر الأموي

ومع هذا، فربما دُوِّن بعضُ الشعر في هذا العصر، غير أن ذلك تم في حدود ضيقة جداً، فقد عُثِر في سنة ٨٣ هـ، في قصر، في مفازة كرمان، على «**كتاب**» كتبه بعض أهل الكوفة من شعر أبي جلدة اليشكري، وهي قصيدة طويلة:

أَيَـا لَـهَـفـاً وَيَـا حُـزناً جَـمِـيـعَـا   وَيَـا حَـرَّ الـفُـؤَادِ لِـمَـا لَـقِـيـنَـا
تَـرَكْـنَـا الـدِّيـنَ وَالـدُّنـيَـا جَـمِـيعـاً   وَأَسْـلَـمْـنَـا الْـحَـلائِـلَ وَالـبَـنِـيـنَـا
فَـمَـا كُـنَّـا أُنَـاسـاً أَهْـلَ دِيـنٍ   فَـنَـصْـبِـرَ فِـي الْـبَـلاَءِ إِذَا ابْـتُـلِـيـنَـا
وَمَـا كُـنَّـا أُنَـاسـاً أَهْـلَ دُنْـيَـا   فَـنَـمْـنَـعَـهَـا وَلَـوْ لَـمْ نَـرْجُ دِيـنَـا
تَـرَكْـنَـا دُورَنَـا لِـطُـغَـامِ عَـكٍّ   وَأَنْـبَـاطِ الْـقُـرَى وَالأَشْـعَـرِيـنَـا[5]

وكما يدل الخبر، فالكتاب: هو قصيدة طويلة، إذ إن المقصود

---

(١) دايونه، ص٨١.
(٢) ابن سلام، طبقات، ص٢٧٢.
(٣) المرزباني، الموشح، ص١٤٤.
(٤) المصدر نفسه، ص١٦٨.
(٥) الطبرى، تاريخ، جـ٦، ص ص٣٦٨ ـ ٣٦٩.

obeikandi.com

بالكتاب: هو ذلك الشعر، وليس مجموع أشعار، والقصيدة التي يقال: إنها طويلة، هي تحديداً خمسة أبيات فقط. وهو المصدر الذي رواه به أبو الفرج أيضاً(1).

وذكر أبو الفرج في رواية أخرى، أن أبا جلدة كتب أبياتاً تسعة للقعقاع بن سويد، والي سجستان، وكان القعقاع قد استعمل أبا جلدة على بست والرخج، من أعمال سجستان، وقال:

«فلما انتهت هذه القصيدة إلى القعقاع، وجه برسوله إلى أبي جلدة، وقال: انظر! فإن كتب هذا الكتاب بالغداة، فاعزله، وإن كان كتبه بالليل، فأقرره»(2).

وهذا جلي على استعمال الكتابة. وسواء أترك أبو جلدة كتاباً، بمعنى قصيدة، أو بمعنى عدد محدود من القصائد، فإن القرائن كلها تشير إلى التدوين والكتابة معاً. ولقد ذُكِرَ أن صِهر كُثَيِّر، زوجَ ابنته، كان يحتفظ بشعر كثير (ت١٠٥هـ) مكتوباً(3).

الفرزدق

ثم إنه لما تأخر الزمن قليلاً، وجدنا ذكراً أكثر صراحة لاستعمال الكتابة في الشعر، فهذا الفرزدق، الذي كان المفضل أبو شقفل

---

(1) الأغاني، جـ١١، ص ص٢٩٣.

(2) المصدر نفسه، ص٢٩٨.

(3) المصدر نفسه، ص١١.

أما قول ليلى الأخيلية (ت٨٥هـ):

أَتـانِـي مِـنَ الأَنـبَـاءِ أَنَّ عَـشِـيـرَةً ... بِـشُورانَ يُزْجُونَ الـمَطِيَّ الـمُـذَلَّلا

يَـرُوحُ وَيَـغْدُو وَفْدُهُـمْ بِـصَـحِـيـفَـةٍ ... لِـيَـسْـتَـجْـلِـدُونِي مَـاءَ ذَلِكَ مَـغْـمَـلا

فإنه لا يدل على أن الصحيفة كانت تتضمن شعراً يستشهد به على هجاء الأخيلية، فهي لم تكتب ذلك الشعر، وإنما قالته، فروته الرواة عنها، والمهجوون يروونه أيضاً. وإنما أرادت أن ذلك الوفد كتب «عريضة» يشكو الأخيلية فيها إلى الأمير. انظر بلاشير، تاريخ الشعر العربي، ص١١٤.

obeikandi.com

روايته، وفي الوقت نفسه كاتبه، يخلو به ليلاً ليكتب أشعاره[1]. وكان راويته، ابن مَتَسوَيْهِ (ومن اسمه يتضح أنه غير عربي)، يكتب شعره أيضاً[2].

وتثبت قصيدته الفائية:

عَزَفْتَ بِأَعْشَاشٍ وَمَا كُنْتَ تَعْزِفُ   وأَنْكَرْتَ مِنْ حَدْرَاءَ مَا كُنْتَ تَعْرِفُ

التي تبلغ ١١٣ بيتاً، والتي نظمها في جلسة واحدة بعد طلوع الفجر[3]، أن القول الشفهي، وليس النظم مع الاستعانة بآلات الكتابة، هو أساس الفن الشعري حتى ذلك العهد. وقد كان للفرزدق راويتان آخران من بني ربيعة بن مالك، ومن تميم، أحدهما يقال له: عبيد[4]، ولعلهما كانا يرويان شعره حفظاً.

جرير

ويبرهن قول قصيدته الدامغة على طريقة قول الشعر وكتابته في هذا العصر أيضاً، حيث يروى أن جريراً أقبل على راويته الحسين، فقال: زد في دهن سراجك الليلة، واعدد ألواحاً ودواة». وقد قال ٨٠ بيتاً من هذه القصيدة البالغة ١١٢ بيتاً في تلك الليلة[5].

وفي رواية أخرى حول القصيدة نفسها، يُروَى عن مولى لبني

---

(١) ديوانه، جـ١، ص٢٩٤.

(٢) أبو عبيدة، نقائض جرير والفرزدق، جـ٢، ص٩٠٨. وانظر خبر كتابته أبياتاً أخرى له، ديوان الفرزدق، جـ١، ص١٦١. وانظر كذلك خبر كتابته أبياتاً له أرسلها إلى سعيد بن الوليد الأبرش، الأغاني، جـ٢١، ص٢٥٩.

(٣) أبو عبيدة، النقائض. . ، جـ٢، ص٥٤٧.

(٤) المصدر نفسه، ص١٠٤٩. وانظر ديوان جرير، ص ص٦٤ ـ ٨٠. المرزباني، الموشح، ص٩٧.

(٥) أبو عبيدة، النقائض، جـ١، ص ص٤٣٠ ـ ٤٣٢. وانظر ديوان جرير، ص ص٤٧٢ ـ ٤٧، والقصيدة فيه ٧٢ بيتاً.

obeikandi.com

كليب بن يربوع، كان يبيع الرطب بالبصرة، قوله:

«كنت أجمع شعر جرير، واشتهي أن أحفظه وأرويه. فجاءني ليلة فقال: إن راعي الإبل قد هجاني، وإني آتيك الليلة... فلما أعتم، جاءني، فقال:... هات دواة وكتفاً، فأتيته بهما، فجعل يملي علي قوله:

أَقِلِّي اللَّوْمَ عَاذِلَ وَالعِتَابَا وَقُولِي إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا

حَتى بلغ إلى قوله:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيرٍ

فجعل يردده، ولا يزيد عليه، حتى حملتني عيني، فضربت بذقني صدري نائماً، فإذا به قد وثب، حتى أصاب السقف رأسه، وكبَّر، ثم صاح: أخزيته، والله! اكتب:

فَلاَ كَعْباً بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَا[1]

ولقد بلغ من حرص جرير على التدوين، أن عَدَا صباحاً إلى المربد، بعد قوله قصيدته الدامغة من ليلته، **فقال: يا بني تيم! قَيِّدوا! قيدوا! أي: اكتبوا**[2]. وذلك رغم أن راويته الحسين كان يكتب عنه.

وهذا أبو عمرو بن العلاء يقول: «كنت قاعداً عند جرير وهو يملي:

وَدِّعْ أُمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ إِنَّ الوَدَاعَ لِمَنْ تُحِبُّ قَلِيلُ

ثم يصف الوضع قائلاً: ***«فمرت به جنازة، فترك الإنشاد»***[3].

(١) الأغاني، جـ٨، ص٣٠. أعتم: دخل في العتمة.
(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، مج١، ص٤٦٦.
(٣) المرزباني، الموشح، ص٣٧٤.

وتبيّن هذه الروايات حرصَ جرير على تدوين شعره، حتى إنه كان قد أملى على غلام قصيدة، كتبها على عظم كتف[1].

وإذا كانت أدوات الكتابة التي مرت في روايات كتابة جرير السابقة ألواحاً، فمن المستغرب هنا أن تُملى قصيدة على عظم كتف، ولعل المقصود عظام أكتاف، إلا أن تكون القصيدة أبياتاً محدودة.

ويثبت خالد بن كلثوم الكلبي أهمية الكتابة والرواية على حد سواء للشاعرين الكبيرين: الفرزدق وجرير كليهما، فيقول:

«مررت بالفرزدق، وقد دوَّنت من شعره وشعر جرير.... فقال: يا خالد.... تكتب نقائضها، أو تحفظها وتنشدنيها، فقال: أفعل، فلزمته شهراً، حتى حفظت نقائضها، وأنشدته إياها»[2].

عمر بن لجأ (ت ١٠٥ هـ)

ثم هؤلاء فتيان من بني عدي يحيطون بالشاعر عمر بن لجأ، فيكتبون فخره بالرباب[3].

وهذا ذو الرمة يقول لعيسى بن عمر:

«اكتب شعري، فالكتاب أعجب إليّ من الحفظ. إن الأعرابي لينسى الكلمة، قد سهرت في طلبها ليلة، فيضع موضعها كلمة في وزنها، لا تساويها»[4].

أدرك ذو الرمة، كما أدرك جرير، فيما بعد، أهمية الكتابة، فحرصا على التدوين. ومن ناحية أخرى، فإن هاتين الحالتين: حالة ذي الرمة وحالة جرير، تثبتان أمية شاعرين، عاشا في فترة أخذت فيها

---

(١) الأغاني، جـ٨، ص٣٢.
(٢) المصدر نفسه، جـ٢١، ص٣٢١.
(٣) أبو عبيدة، نقائض، جـ٢، ص٩٠٨.
(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١، ص٣٦.

الكتابة في الانتشار، ووصل الشعر على يديهما، وفي زمنهما، إلى درجة عالية من الإحكام والتفنن؛ ولعلنا نستنتج من ذلك أن استعمال الكتابة لتدوين الشعر في هذه الفترة، يثبت من طرف آخر، استبعاد أن يكون الشعر الجاهلي قد دون في زمانه.

عدي بن الرقاع بين التطور والتقليد

وإذا ما أخذنا في الاعتبار تلك النقلة الحضارية التي تمت في أيام بني أمية، وبخاصة في عهد الوليد بن يزيد، ومن جاء بعده، فليس بمستغرب، بعد ذلك، أن يتفنن الشعراء البدو في نقل صور حضارية تخص الخط والكتابة، ولعل أشهر مثال على ذلك، قول عدي بن الرقاع، يصف ولد ظبية مع أمه:

تُزجِي أَغَنَّ كَأَنَّ إِبرَةَ رَوقِهِ ... قَلَمٌ أَصابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدادَها[1]

فعدي، رغم هذه الصورة الخالدة للخط، يظل مصوِّراً لها، غير مستعمل لأدواتها، مما يثبت أنه أعرابي، مثله مثل من سبقه.

المقنع الكندي

ويزداد تأكيد ذلك النقل شدة عند شاعر آخر، وَصَف الخط وصفاً بالغ **الروعة والإتقان**، وربما كان يعرف شيئاً منه، فقال المقنع الكندي:

كَالْخَطِّ فِي كُتُبِ الْغُلامِ أَجَادَهُ ... بِمِدَادِهِ وَأَسَدَّ مِنْ أَقلامِهِ
قَلَمٌ كَخُرطُومِ الحَمَامَةِ مَائِلٌ ... مَستَخفِظٌ لِلْمِلْمِ مِنْ عَلاَمِهِ
يَسِمُ الحُرُوفَ إِذا يَشَاءُ بِنَاءَهَا ... لِبَيَانِهَا بالنَّقْطِ مِنْ أَرْسَامِهِ
مِنْ صُوفَةٍ نَفَثَ الْمِدَاد سُخَامَهُ ... حَتَّى تَغَبَّرَ لَونُهَا بِسُخَامِهِ

---

(١) ديوانه، ص٨٥. تزجي: تدفعه قُدُما، ليمشي من صغره وضعفه. أغن: أي هو صغير ضعيف الصوت. إبرة روقه: حدة الروق، والروق: القرن.

obeikandi.com

يَخفَى فَيُقصَمُ مِنْ شَعِيرَةِ أَنْفِهِ   كَقُلامَةِ الأُظْفُورِ مِنْ قُلامِهِ
وَبِأَنْفِهِ شَقٌّ تَلاءَمَ فَاسْتَوَى   سُقِيَ المِدَادَ فَزَادَ فِي تَلامِهِ
مُسْتَعْجِمٌ وَهُوَ الفَصِيحُ بِكُلِّ مَا   نَطَقَ اللِّسَانُ بِهِ على اسْتِعْجَامِهِ
وَلَهُ تَرَاجِمَةٌ بِأَلْسِنَةٍ لَهُمْ   تِبْيَانُ مَا يَتْلُونَ مِنْ تَرْجَامِهِ
مَا خَطَّ مِنْ شَيْءٍ بِهِ كَتْنَى بِهِ   مَا إِنْ يَبُوحُ بِهِ عَلَى اسْتِكْتَامِهِ
وَهِجَاؤُهُ قَافٌ وَلامٌ بَعْدَهُ   مِيمٌ مُعَلَّقَةٌ بِأَسْفَلِ لامِهِ[1]

فهذه الصورة الدقيقة للخط، التي قد تشعرنا بأن المقنع ممن مارس الكتابة، لا تختلف في أصلها عن قول لبيد، الذي مر بنا: «.. **يجددها وليد يمان**». فالمقنع، الذي تحرر من بعض القيود الفنية في هذا العصر، إنما يصف الكتابة وصفاً، فالكاتب ليس هو، بل «**غلام**»، ومن ثم راح يدقق في الصورة، ويلتقط جزئياتها، وما ذاك إلا ليصل إلى وصف قصيدته في الوليد بن يزيد (١٢٥هـ ـ ١٢٦هـ)، في قوله:

أَهْدَى المُقَنَّعُ لِلْوَلِيدِ قَصِيدَةً   كَالسَّيْفِ أُرْهِفَ حَدُّهُ بِحُسَامِهِ

ويدل بيته الأخير: «**وهجاؤه قاف ولام..**»، على أن المقنع الكندي كان يعرف رسم الكلمات، وليس ذلك بمستغرب في ذلك العصر المتأخر؛ فقد تجاوز المقنع مرحلة الأمية التامة؛ فهذا ابن أحمر، الشاعر المخضرم، يصف شكل النون، غير أن هذا الوصف لم يتعد النقل، كما فعل ذو الرمة؛ وعدي ابن الرقاع، في وصفه القلم، ربما كان ينقل صورة كُتَّاب الدولة في عصره، لا سيما أولئك الذين يتولون الترجمة، كما قال: «**وله تراجمة بألسنة لهم...**». يقول ابن أحمر:

---

(١) الجاحظ، الحيوان، جـ١، ص ص٦٥ ـ ٦٦.

يحفى: أي يرق سنه، فيتعثر في الكتابة. استعجم: سكت.

وَحَاجِبٍ كالنُّونِ فِيهِ بَسْطَةٌ أَجَادَهُ الكَاتِبُ خَطاً بِالْقَلَمْ[1]

فشكلُ النون لديه معروف، إلا أن كاتبه ليس هو ابن أحمر، وإنما كاتب آخر غيره: «**الكاتب**».

(١) شعره، ١٤١.

obeikandl.com

الفصل الثالث

معرفة ذي الرمة الكتابة

أُمِيَّةُ ذي الرمة

وإذا كان هناك من يتشبث بمعرفة ذي الرمة بالكتابة، إتكاءً على بعض الروايات التي أوردوها[1]، فإننا نرى أن هذه الروايات على النقيض من ذلك تماماً، لا تثبت تلك الفكرة، وإن كنا نتبين منها شيئاً مهما جدا، وهو أن التعليم لم يقتصر على الحاضرة، بل ابتدأ يزحف على البادية؛ وما زلنا نُدرج ذا الرمة ضمن الشعراء الأميين من أبناء قبيلة تميم، فجرير أمي، والفرزدق أمي، وذو الرمة أمي كذلك. وتُبَين الحادثة التي رواها القالي، الجانبين السابقين كليهما: الأمية والتعليم في البادية، يقول:

«قيل لذي الرمة: من أين عرفت الميم، لولا صدف من سنك إلى تعليم أولاد الأعراب في أكتاف الإبل؟ فقال: والله! ما عرفت الميم، إلا أني قدمت من البادية إلى الريف، فرأيت الصبيان، وهم يجوزون بالفجرم في الأوق، فوقفت حيالهم أنظر إليهم، فقال غلام من الغلمة: قد أزقتم هذه الأوقة، فجعلتموها كالميم، فقام غلام من الغلمة، فوضع منجمة في الأوقة، فنجنجه، فأفهقها، فعلمت أن الميم شيء ضيق، فشبهت عين ناقتي به، وقد اسلهمت وأعيت»[2].

---

(١) الأسد، مصادر...، ص ص١١٧ ـ ١١٨؛ يوسف خليف، ذو الرمة شاعر الحب والصحراء، ص ص٢٤ ـ ٢٥.

(٢) القالي، الأمالي، جـ٢، ص٤. الفجرم: الجَوز الأوقة: الحفرة. أزقتم: ضيقتم. نَجنَجَه: حركه. أفهقها: ملأها؛ المنجَم: العَقِب. اسلهمّت: تغيرت.

obeikandl.com

ويؤكد قسمه: «**والله! ما عرفت الميم**»، صدقه في عدم معرفته الكتابة.

صدقه في عدم معرفته الكتابة

ولجلاء هذه النقطة جلاء يكشف عن حقيقتها، نورد بعض الروايات التي تدعم أمية ذي الرمة؛ فعيسى بن عمر (ت١٥٠هـ) يورد ما دار بينهما من حديث، فيقول:

«***ارفع هذا الحرف. فقلت له: أتكتب؟ فقال بيده على فمه، أي: اكتم علي! فإنه عندنا عيب***»[1]. ويقول: «***قال لي ذو الرمة، أنت والله أعجب إلي من هؤلاء الأعراب! أنت تكتب، وتؤدي ما تسمع، وهؤلاء يَهُون على أحدهم ـ وقد نَحَتُّهُ من جبل ـ أن يجيء به على غير وجهه، قال: قلت: إني لم أحل منك بشيء، قال: كنت مشغولاً، عد إلي. فعدت إليه، فتعاييت في شيء، فتهجّاه لي، فقلت: أراك تكتب، يا أبا الحارث! قال: إياك أن يعلم هذا أحد، تعلمت الخط من رجل كان عندنا، أتانا بالحضر، فكان يجلس إلي من العتمة إلى أن ينكفت السامر، يخط لي في تراب البطحاء***»[2]...

وفي رواية أخرى يقول أيضاً:

«***كنت في يوم من أيامي أقرأ على ذي الرمة شيئاً من شعره، فقال: أَصْلِح هذا الحرف! فقلت: وإنك لتكتب؟ قال نعم، قدم علينا حضري لكم، فعلَّمنا الخط في الرمل***»[3].

أما رواية أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ)، فتقول أنه:

«***رأى ذا الرمة في دكان طحان بالبصرة يكتب، فقال له: ما هذا***

---

(١) الصولي، أدب الكتاب، ص٦٢

(٢) المرزباني، . الموشح، ص١٦٢

(٣) ابن جني، الخصائص، ج٣، ص٢٩٦.

يا ذا الرمة؟ فقال: اكتم علي، يا أبا عمرو!» (1).

ولا تختلف رواية شعبة عن رواية عيسى بن عمر، يقول شعبة:

«لقيني ذو الرمة، فقلت: اكتبني بعض شعرك! فجعل يملي علي، ويطّلع في الكتاب، فيقول: ارفع اللام من السين، وشق الصاد، ولا تُعوِّر الكاف! فقلت: من أين لك الكتاب؟ قال: قدم علينا رجل من الحيرة، فكان يؤدب أولادنا، وكنت آخذ بيده، فأُدخله الرمل، فيعلمني الكتاب، وأنا أفعل ذلك لئلا تقول علي ما لم أقل» (2).

ومن الروايات التي تدور حول معرفة ذي الرمة بحروف الكتابة، خبر حماد الراوية الذي يقول:

رواه الصولي كالتالي: «قرأ حماد الراوية على ذي الرمة شعره، فقال: تراه قد ترك في الخط لاما ـ فقال ذو الرمة: اكتب لاماً. فقال حماد: وإنك لتكتب؟ قال: تكتم عليّ! فإنه كان يأتي باديتنا خطاط، فعلّمنا الحروف تخطيطاً في الرمال في الليالي المقمرة، فاستحسنتها، فثبتت في قلبي، ولم تخطها يدي» (3).

فهذه الروايات المتعددة، لا تكشف عن أن ذا الرمة كان يكتب حقيقة، وإنما تؤكد نظرة الأعراب إلى الكتابة، والاستحياء من الاتّهام بمعرفتها؛ كما تؤكد تأكيداً قوياً على أمية ذي الرمة، وأن صورة تلك الحروف هي التي انطبعت في ذهنه، ولم يمارسها عملياً. فجميع الروايات تبين أن الرجل كان يتعلم الحروف خِفية حتى لا يطلع عليه أحد، فيتهمه بتعلم «**الصنعة**» المذمومة في نظر البدوي، كما تبين أنه حتى ذلك التعلم كان بعيداً عن أنظار الناس، تحت ضوء القمر،

---

(1) ابن جني، الخصائص، ج٣، ص٢٩٦.

(2) المرزباني، الموشح، ص١٦٢.

(3) الصولي، أدب الكُتّاب، ص٦٢.

وعلى الرمل، حتى رسخت في ذاكرته صورة تلك الحروف. وطبيعي أن تلك الطريقة لا تَخلُق كاتباً على أي مستوى؛ إنه مجرد استحسان، ولكنه لم يمارس الكتابة حقيقة. «**لم تخطها يدي**»، أي بتعبير آخر، إن مواقف ذي الرمة كانت مواقف دهشة وفرح بمعرفة تلك الحروف وأشكالها.

أما رواية أبي عمرو بن العلاء، فلا تعني أيضاً أنه كان يكتب، فهي في مدلولها تتفق مع غيرها في أن تعلم الكتابة كان عيباً لمن هم في سن ذي الرمة في مجتمعه، ثم إنها تقول: «**إن ذا الرمة كان في دكان طَحّان بالبصرة يكتب**». ولنا أن نتصور مادة الكتابة في دكان الطحان؛ أليست هي الطحين المتناثر في الدكان، بحيث يشبه سطح الرمل في البادية؟ والتعبير بالكتابة عند أبي عمرو بن العلاء، هو التعبير بالكتابة عند غيره، أي إن مجرد الخط على الرمل، أو الطحين، بعضَ الحروف، يدفع إلى الظن بأنه معرفة بالكتابة.

إذن، فذو الرمة ينقل صورة ارتسمت في ذهنه عن الكتابة، ولم يمارسها. وما تشبيهه الذي رأيناه لعين الناقة باستدارة الميم، على ما فيه من بداوة وسذاجة، إلا كتشبيهه لأنوف الطير بحركة رؤوس الأقلام، وهي صورة أرقى ذوقاً من تلك، حيث يقول:

كَأَنَّ أُنوفَ الطَّيرِ في عَرَصَاتِهَا ... خَرَاطِيمُ أَقْلامٍ تَخُطُّ وَتُعْجِمُ[1]

ومثل ذلك يمكن أن يقال عن قول أبي النجم، وهو يصور اضطرابه في مشيته بمثل كتابة «**لام ألف**» في الاستقامة مثل الألف؛ والاعوجاج مثل اللام:

أَقْبَلْتُ مِنْ عِنْدِ زِيَادٍ كَالْخَرِفْ ... تَخُطُّ رِجْلايَ بِخَطٍّ مُخْتَلِفْ

---

(١) ديوانه، ج٣، ص١٥٨٠.

عرصاتها: جمع عَرْصة، وهي كل بُقعة بين الدور واسعة، ليس فيها بناء.

وَتَـكْـتُـبَـانِ فِـي الـطَّـرِيـقِ لامَ أَلِـفْ[1]

وينفي هذا، بعد ذلك، ما قاله الأصمعي من أن ذا الرمة كان: «**معلماً بالبادية، وكان يحضر اليمامة والبصرة كثيراً**»[2].

أبو النجم

وعليه، فيجب ألا يدفعنا أي من تلك الأقوال إلى الزعم أنه كان يمارس الكتابة حقاً، ذلك أن صورة الكتابة ما زالت مشوَّهة في ذهنه. وما معرفة أبي النجم باللام ألف، إلا مثل معرفة جرير والراعي **بالكاف والميم** اللتين مرتا بنا، والفرق هو أن أبا النجم قد يكون نقل الصورة من مشاهداته اليومية في هذا العصر الذي ذاعت فيه الكتابة، أما جرير وغيره، فكانوا متأثرين بالتقليد الماضي. وهو أمر يجب أن نحسب حسابه، لاختلاف طريقة شعراء القصيدة عن شعراء الرجز.

وشبيه بقول أبي النجم، قول الآخر يصف غراباً، ويشبهه بجندي، وتبقى صورة الكتابة عنده شبيهة بالطارق في الرمل:

يَـقْـلُـزُ فـيـهـا مِـقْـلَـزُ الـحـجـولِ ... بـغـيـاً عـلـى سـاقَـيْـهِ كـالـمـشـكـولِ

بـخـط لام ألـف مـوصـولِ ... والـزاي والـرا أيـمـا تـهـلـيـلِ

خـط يـد الـمـسـتـطـرق الـمـشـلـولِ[3]

ونحن إذ نرفض أن يكون ذو الرمة، أو أبو النجم، قد مارسا الكتاب، نرفض أيضاً أن يكون النبي ﷺ كان يعرفها، فالنبي ﷺ أمي

---

(١) الصولي، أدب الكتاب، ص٦٢. زياد: صديق له كان يسقيه، فينصرف من عنده ثملًا كالخرف الذي فسد عقله لكبره.

(٢) المرزباني، الموشح، ص١٥٦.

(٣) البغدادي، الخزانة، ج١، ١١٧. وانظر، أبا زيد، النوادر، ص٦٧. الحجلان: مشية المقيد كالحَجَل إذا نزل في مشيه. المقلز: من قلز الغراب، إذا تعارج في مشيه. البغي: المرح والخيلاء. المشكول: الذي في رجله شكال، وهو قيد. المستطرق: الكاهن الذي يطرق الحصى بعضه ببعض.

obeikandl.com

تشهد على ذلك سيرته ورسالته. ولنا أن نفسر ما رُوي عن توجيهاته لبعض الكتاب، بأنها ـ إن صحت ـ ملاحظات عابرة عن صور انطبعت في الذهن، وليست حقيقة على الإطلاق[1]. قال أصدق القائلين: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

الخط بمعنى الأثر

إن ما ينبغي أن نلتفت إليه، هو أن تكرار استعمال لفظة «**خط**»، لا يعني الخط كتابة، وإنما يعني رسم خط من الخطوط، يقول ذو الرمة:

أَخُطُّ وَأَمْحُو الخَطَّ ثُمَّ أُعِيدُهُ   بِكَفِّيَ وَالغِرْبَانُ فِي الدَّارِ وُقَّعُ[2]

أي أعمل رسما في الرمل على شكل خط. وقال الآخر:

بِهَا ضَرْبُ أَذْنَابِ العِظَاءِ كَأَنَّهَا   مَلاَعِبُ وِلْدَانٍ تَخُطُّ وَتَمْصَعُ[3]

وهذا تصوير مطابق للحركة المرسومة، فآثار العظاء ومزاحفها في الرمال، تشبه خط الصِّبْيَة الصغار، وهم يلعبون في الرمال كذلك، ذاهبة خطوطهم هنا وهناك في غير انتظام مقصود. وإن هذه الصور لا تختلف عن قول الطرماح في تشبيه حركات الثور الوحشي تحت الأرطاة:

فَأَصْبَحَ مَخْبُوراً تَخُطُّ ظُلُوفُهُ   كَمَا اخْتَلَفَتْ بِالطَّرْقِ أَيْدِي الكَوَاهِنِ[4]

---

(١) الهوريني، المطالع النصرية، ص ص١٤ ـ ١٦ وانظر نقل مثل ذلك الأدعاء، ثم الرد عليه، في إسحاق، ماذا حول أمية الرسول ﷺ، ص ص٢٤ ـ ٢٦، ٤٣ ـ ٥٥. وانظر آل بن علي، الرد الشافي...، ص ص٦٩.. إلخ.

(٢) ديوانه، ج٢، ص٧٢١.

(٣) الجاحظ، الحيوان، ج٤، ص١٧٥. العظاء: جمع العِظاءة؛ وهي دويبة كالورل والضب، دون الحرباء حجما. تمصع: تسرع.

(٤) ديوانه، ص٥١٠. وانظر الأغاني، ج٧، ص١١٥.

الفصل الرابع
استمرار النمط القديم

صورة الأطلال

ومما يؤكد القول بعدم استخدام الكتابة في الشعر، أنه حتى أولئك الشعراء الإسلاميون والأمويون الذين كانت غالبيتهم من البدو، لم يمارسوا كتابة الشعر، وإنما كانوا يقولونه شفوياً؛ فإضافة إلى تلك الصور التي كانت تعكس صورة الكتابة في أذهانهم عند الأمم الأخرى، كما كانت تنعكس أمام أحفادهم، نجدهم يعيدون الصور التي ذكرناها عند بدء النقاش، كما فعل أحفادهم أيضاً. نجد ذلك عند النابغة الشيباني مثلاً، وعند جميل بثينة، والفرزدق وجرير. فمن صور النابغة الشيباني قوله:

فَهَيَّجَ دَمْعِي رَسْمُ دَارٍ كَأَنَّهُ وَحِيُّ السَّلامِ فَالدُّمُوعُ بَوَادِرُ[1]

وقوله:

أَبْلَى مَعَارِفَ أَطْلَالٍ وَغَيَّرَهَا فَكُلُّ آيَاتِهَا مَمْحُوَّةٌ طُمُسُ

نُؤْيٌ وسُفْعٌ وَمَشْجُوجٌ وَمُلْتَبِدٌ كَأَنَّهَا كُتُبٌ عَادِيَّةٌ دُرُسُ[2]

وقال العرجي:

---

(١) ديوانه، ص١٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٤. النؤي: مجرى الماء حول الخباء. السفع: الأثافي. المشجوج: الوتد. الملتبد: الملتصق بعضه على بعض، أي التراب.

obeikandl.com

لِـمَـنْ طَـلَـلٌ بِـالـنَّـعْـفِ نَـعْـفِ وَقِـيـرِ   يُـشَـبِّـهُ مَـغْـنَـاهُ كِـتَـابَ زَبُـورِ[1]

وقال جميل:

قَـفـراً تَـلُـوحُ بِـذِي الـلُّـجَـيْـنِ كَـأَنَّـهَـا   أَنْـضَـاءُ رَسْـمٍ أَوْ سُـطُـورُ كِـتَـابِ[2]

وقال الأخطل مشبهاً آثار الديار بثياب يمانية بالية ذات خطوط، كما يشبهها بكتابة في كتب قديمة مهملة:

فَـهْـيَ كَـسَـحْـقِ الْـيَـمَـانِـي بَـعْـدَ جِـدَّتِـهِ   أَوْ دَارِسِ الْوَحْيِ مِنْ مَرْفُوضَةِ الْكُتُبِ[3]

وقال أيضاً في صورة أخرى:

لِـخَـوْلَـةَ بِـالـدُّومِـيِّ رَسْـمٌ كَـأَنَّـهُ   عَنِ الْحَوْلِ صُحْفٌ عَادَ فِيهِنَّ كَاتِبُ[4]

كما قال ذو الرمة، مشبهاً آثار الناس في سواد الأطلال بالكتب، وهو تأكيد على استمرار التقليد لديه:

وَدِمْـنَـةَ هَـيَّـجَـتْ شَـوْقِـي مَـعَـالِـمُـهَـا   كَـأَنَّـهَـا بِـالْـهِـدَمْـلَاتِ الـرَّوَاسِـيـمُ

---

(١) ديوانه، ص٧٥. النعف: الأرض المرتفعة عن منحدر الوادي. وقير: جبل.

(٢) ديوانه، ص١٧.

ومما لا شك فيه أن البيت التالي، لأحد المجهولين، مصنوع في الإسلام، وليس جاهليًا، كما يدل عليه تركيبه:

فَأَصْبَحَتْ ـ بَعْدَ ـ خَطَّ ـ بَهْجَتِهَا   كَأَنَّ قَفْراً ـ رُسُومُهَا ـ قَلَمَا

أراد: فأصبحت بعد بهجتها قفرا، كأن قلما خط رسومها، ففصل بالفعل (خط) بين المضاف الذي هو (بعد)، والمضاف إليه الذي هو (بهجتها)، وفصل أيضاً بالفعل نفسه (خط) بين (أصبحت) وخبرها الذي هو (قفرا)، وفصل بين (كأن) واسمها الذي هو (قلما) بأجنبيين: أحدهما، (قفرا)، والآخر (رسومها) وهو مفعول (خط)، وهو خبر (كأن).

انظر، ابن جني، الخصائص، ج٢، ص٣٩٣. السحق: البالي.

(٣) شعره، ج١، ص٢٤١.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٧٦٣. الدومي: موضع في ديار بني هلال. عن الحول: بعد الحول.

والرواسيم: كتب كانت في الجاهلية[1]. ونحن نفهم هذه الكتب - في إطار التشبيه بالقِدم، حسب المنظور العام للكتابة - على أنها كتب عند الأمم المشار إليها هنا، وهي على العموم، لا تخرج عن حد تشبيه الدمن بالكتاب، مثل قوله ذاكراً «**الضبار**» وهي الكتب:

أَقُولُ لِنَفْسِي وَاقِفاً عِنْدَ مُشْرِفٍ ... عَلَى عَرَصَاتٍ كَالضُّبَارِ النَّوَاطِقِ[2]

وليس أدل على إظلال الصورة وسوادها، من قوله، مشبهاً - في صورة استعارية تبدو سابقة لأوانها - الصحارى بالمهارق، أي الصحف:

وَخَرْقٍ كَسَاهُ اللَّيلُ كِسْراً قَطَعْتُهُ ... بِيَعْمَلَةٍ بين الدجا والمَهَارِقِ[3]

وقال الفرزدق:

عَرَفْتُ الْمَنَازِلَ مِنْ مَهْدَدِ ... كَوَحْيِ الزَّبُورِ لَدَى الْفَرْقَدِ[4]

وهذا الأمر ملحوظ في قول أحد الشعراء، ذاكراً علي بن

---

(١) الجوهري، الصحاح، جـ٥، ص١٩٣٢. وانظر ديوان ذي الرمة، جـ١، ص٣٧٦. الدمنة: آثار الناس، وما سوّدوا ولَطّخوا. معارفها: أي ما كنت تعرف من هذه الدمنة. الهدملات: جمع هِدَمْلة؛ وهي الرمال المشرفة، أي الكثبان. وفي رواية الديوان: «الرواشيم»: أي الطوابع. «رسم» ومثله قوله، ديوانه، جـ٢، ص٦٨٣:

كَأَنَّ دِيَارَ الْحَيِّ بِالزُّرْقِ خِلْقَةً ... مِنَ الأَرْضِ أَمْ مَكْتُوبَةٌ بِمِدَاءِ

وقوله:

وَضِبحاً ضَبَتْهُ النَّارُ فِي ظَاهِرِ الحَصَى ... كَبَاقِيَةِ التَّنْوِيرِ أَوْ نُقَطِ الحِبْرِ

ديوانه، جـ٢، ص٩٤٤. الضبح: آثار النار. ضبته: غيَّرته. التنوير: هو أن تضرب اللثة أو اليد بالإبرة، ثم تجعل عليه الإثمد، أو نقط الحبر.

(٢) الزبيدي، تاج العروس، ضبر؛ وانظر: ديوان ذي الرمة، جـ١، ص٢٤٧.

(٣) ديوانه، جـ١، ص٢٥٣. الخرق: الأرض الواسعة البعيدة. الكسر: ما يثنى على الأرض من الشُّقَّة السفلى من بيوت الشعر. اليعملة: الناقة السريعة.

(٤) ديوانه، جـ١، ص١٧٢. الفرقد: ولد البقرة الوحشية، ونجم الفرقد، ولعل المقصود به هنا اسم مكان.

obeikandl.com

أصمع، جدَّ أبي الأصمعي، وكان يتولى محو المصاحف المخالفة لمصحف عثمان رضي الله عنه، من قبل الحجاج:

وَإِلاَّ رُسُومَ الدَّارِ قَفْراً كَأَنَّهَا كِتَابٌ مَحَاهُ البَاهِلِيُّ بنُ أَصْمَعَا[1]

ويقول الراعي، في تشبيه خدي ناقته:

تُقَلِّبُ خَدَّيْنِ كَالمُصْحَفَيْـ ـنِ خَطُّهُمَا وَاضِحٌ أَزْهَرُ[2]

وهو ملحوظ أيضاً في قول أبي وجزة السعدي (ت١٣٠هـ):

يَا دَارَ أَسْمَاءَ قَدْ أَقْوَتْ بِأَنْشَاجِ كَالوَحْيِ أَوْ كَإِمَامِ الكَاتِبِ الهَاجِي[3]

أما قول الشاعر الكاتب، الكميت بن زيد (ت١٢٦هـ):

حَتَّى كَأَنَّ عِرَاصَ الدَّارِ أَرْدِيَةٌ مِنَ التَّجَاوِيزِ أَوْ كُرَّاسُ أَسْطَارِ[4]

فهو، وإن كان يؤكد حقاً الاتّباع وامتداد ذلك المأثور، فيجب أن نتنبه إلى تلك القفزة النوعية التي حدثت في الخط العربي، والإمكانات المتاحة للشاعر في القرن الثاني الهجري، مما لم يكن متيسراً لأولئك الشعراء القدامى، وعدي بن زيد من ضمنهم. فإضافة إلى ذكر الباهلي، والمصحف، نصادف عند الشاعر الكاتب، الطرماح، تشبيهاً للدمن برسم الآيات دقيقة في الخط، يقول:

أَهَاجَكَ بِالمَلَا دِمَنٌ عَوَافِي كَخَطِّ الكَفِّ بِالآيِ العِجَافِ[5]

مع أن الطرماح نفسه يقول في التصوير المألوف:

فِيهَا لِوِلْدَانِ الصِّبَا مَلْعَبٌ كَأَنَّمَا آثَارُ أَقْدَامِهَا

---

(١) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص١٠٥.

(٢) شعره، ص٢٠٨.

(٣) اللسان، «هجا».

(٤) شعره، جـ١، ص١٨١.

(٥) ديوانه، ص٣١٩.

صَحِيفَةٌ رَقَّشَهَا كَاتِبٌ لَمْ يَتَقَادم عَهْدُ أَقْلَامِهَا[1]

وهذا يعني أن التصوير في الحالتين واحد.

أي إن الصورة الاتباعية القديمة هي هي لم تتغير، فرغم ممارسة الكتابة واستعمالها، ظل الشاعر المتعلم يعيد ملامحها العتيقة. يقول الطرماح، في تشبيه الخطوط السود في قوائم الثور الوحشي بالكتابة الحميرية:

حَتَّى إِذَا هُوَ آلَ واطَّرَدَتْ لَهُ شُعَبٌ كَأَنَّ وُحِيَّهُنَّ الـمُسْنَدُ[2]

تأثير أهل الكتاب

التأثير اليهودي

قبل قليل مر بنا قول العرجي: «... **كتاب زبور**»[3]، وهنا يقصد بالزبور كتاباً لليمن، والذي يقصد به كتاباً لليهود. كما نجد في الإسلام أيضاً ذكراً لحروف هجائية أخرى، مثل قول الراجز: ناقلاً صورة مشوهة للكتابة، ومشبهاً الأطلال بها، ذاكراً بعض الحروف أيضاً:

تَخَالُ مِنْهُ الأَرْسُمَ الرَّوَاسِمَا كَافاً وَمِيمَينِ وَسِيناً وَطَاسِمَا

وقول الراعي أيضاً:

أَشَاقَتْكَ آيَاتُ أَبَانَ قَدِيمُهَا كَمَا بُيِّنَتْ كَافٌ تَلُوحُ وَمِيمُهَا[4]

وقال جرير في مثل هذا التشبيه:

حَيِّ الدِّيَارَ كَوَحْيِ الكَافِ وَالمِيمِ مَا حَظُّكَ اليَوْمَ مِنْهَا غَيْرُ تَسْلِيمِ[5]

---

(١) المصدر نفسه، ص١٤٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٤٠.

(٣) التاج، «ميم».

(٤) ديوانه، تحقيق رايشهرت فاييرت ص٢٥٨.

(٥) ديوانه، ص٤٨٨. وانظر ذكر (الألف واللام)، ص٣٨٦.

ووفقاً لتلك الإشارات السابقة، فإن هذه الحروف اتخذت شكلاً نمطياً، يعكس موروثاً ثقافياً مشتركاً قديماً، إنه هنا تأثير الكتابة عند أهل الكتاب، لا سيما اليهود، وهذا واضح في قول جرير نفسه، مبيناً جنس ذلك الكاتب وتلك الكتابة والعلاقة بينها في قوله:

كَأَنَّ أَخَا الـيَـهُـود يَـخُـطُّ وَحْـيـاً بِـكَـافٍ فِـي مَـنَـازِلِـهَـا وَلَامِ[1]

وقال المرار بن منقذ العدوي، الشاعر الأموي:

وَتَرى مِنْهَا رُسُوماً قَدْ عَفَتْ مِثْلَ خَطِّ اللَّامِ فِي وَحْيِ الزُّبُرْ[2]

وهو واضح كذلك من قول أبي حية النميري، الذي جعل كتابة اليهود بعضها متقارب، وبعضها متباين؛ لاقتضاء آثار الديار تلك الصفة والحال، مما يدل على تصورهم لكتابة اليهود:

كَمَا خُطَّ الكِتَابُ بِكَفِّ يَوْماً يَهُودِيٍّ يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ[3]

وقال عمرو بن لجأ، ناقلاً صورة قديمة للأطلال والكتابة:

مَحَاهَا البِلَى لِلْحَوْلِ حَتَّى تَنَكَّرَتْ كَأَنَّ عَلَيْهَا رَقَّ نِقْشٍ يَزِينُهَا
كِتَابَ يَدٍ مِنْ حَاذِقٍ مُتَنَطِّسٍ بِمَسْطُورَةٍ مِنْهُنَّ دَالٌ وَسِينُهَا[4]

وهناك شواهد كثيرة على هذا التأثير في خيال شعراء هذا العصر، فقد ظل هذا التصور حتى الفترة الأموية، حيث نلاحظ تكرار ذكر علماء اليهود، كما قال القتال الكلابي:

تُنِيرُ وَتُسْدِي الرِّيحُ فِي عَرَصَاتِهَا كَمَا نَمْنَمَ الْقِرْطَاسَ بِالْقَلَمِ الْحَبْرُ[5]

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٩٨.
(٢) الأنباري، شرح المفضليات، ص١٥٤.
(٣) القرطبي، الجامع، م٤، ج٧، ص٩٣.
(٤) شعره، ص١٢٩.
(٥) ديوانه، ص٤٩.

obeikandl.com

وقال البعيث:

فَصَارَةَ فَالقَوْيَنِ لأَياً عَرَفْتُهُ   كَمَا عَرَّضَ الحَبْرُ الكِتَابَ المُرَقَّمَا[1]

وقال جرير:

بَيْنَ المُخَيْصِرِ فَالعَزَّافِ مَنْزِلَةٌ   كَالوَحْيِ مِنْ عَهْدِ مُوسَى فِي القَرَاطِيسِ[2]

وقال:

وَكَأَنَّ مَنْزِلَةً لَهَا بِجَلَاجِلٍ   وَحْيُ الزَّبُورِ تُجِدُّه الأَحْبَارُ[3]

وقد بين ذو الرمة أن اليهود، هم الذين كانوا يمارسون الكتابة، فقال:

كَأَنَّ قَرَا جَرْعَائِهَا رَجَّعَتْ بِهِ   يَهُودِيَّةُ الأَقْلَامِ وَحْيَ الرَّسَائِلِ[4]

التأثير النصراني

وقال الحسين بن مطير، ذاكراً أن رهبان النصارى كانوا أيضاً ممن مارس الكتاب في الجزيرة العربية، وتدل قلة الإشارات إلى النصارى الكتاب، على ندرتها بينهم:

وَبِالبُرَقِ أَطْلَالٌ كَأَنَّ رُسُومَهَا   قَرَاطِيسُ رُهْبَانٍ تَلُوحُ سُطُورُهَا[5]

وقال جرير، موضحاً أن كتب الرهبان قديمة أيضاً، فقال:

كَأَنَّ دِيَارَ الحَيِّ مِنْ قِدَمِ البِلَى   قَرَاطِيسُ رُهْبَانٍ أَحَالَتْ سُطُورُهَا[6]

---

(١) البكري، معجم ما استعجم، ج٣، ص٨٢٢. صارة والقوين: موضعان.

(٢) ديوانه، ص٣٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٠١.

(٤) ديوانه، ج٢، ص١٣٣٤. القرا: الظهر. الجرعاء: الرملة الطيبة المنبت، لا وعوثة فيها. رجعت: رددت خطوطها. الوحي: الكتاب. وانظر، الأصبهاني، التنبيه على حدوث التصحيف، ص١٦.

(٥) ابن الشجري، الحماسة الشجرية، ج٢، ص٥٦٢.

(٦) ديوانه، ص٢٦٦.

غموض بعض الصور النمطية

وقع بعض اللبس في فهم بعض الإشارات، في شعر بعض الشعراء الإسلاميين ومن ذلك قول ابن أحمر:

وَلِلشَّيخِ تَبْكِيهِ رُسُومٌ كَأَنَّهَا تَرَاوَحهَا الْعَصْرَيْنِ أَرْوَاحُ مَنْدَدِ
تَمَاثِيلُ قِرْطَاسٍ عَلَى هَبْهَبِيَّةٍ نَضَا الْكُورُ عَنْ لَحْمٍ لَهَا مُتَخَدِّدِ

وذلك حسبما ذهب إليه محقق الديوان من أن التماثيل بمعنى الكتب[1]، وقد يقال، من جهة أخرى، إن التماثيل لا تخرج عن مدلولها الحقيقي، وهو الرسوم والتصاوير على جلود تُزَيِّن الرحل. ولا تخرج هذه الصورة عن تلك التي رسمها الطرماح في قوله يصف الرحل:

بِذِي ذِئَبٍ يَنُوسُ بِجَانِبَيْهِ عَثَاكِلُ مِنْ أَكَالِيلِ الْعُهُونِ

فهو يقول عن أحناء الرحل من مقدمه: أن ما علق عليه من عهن أو صوف أو زينة يتأرجح في الهواء، والعهن هو الصوف المصبوغ ألواناً يعلق على جانبي الرحل والهودج للزينة[2]، وتجتمع

---

(١) شعره، ص٥٠.
تراوحها: تناوب الهبوب عليها. أرواح: جمع ريح. مندد: واد باليمن كثير الرياح شديدها. نضا: كبر واتسع. الكور: خشب الرحل. متخدد: هزيل ضامر ناقص.

(٢) ديوانه، ص٥٣٠. ولعل من ذلك قول علقمة:

عَقْماً وَرَقْماً يَكَادُ الطَّيْرُ يَتْبَعُهُ كَأَنَّهُ مِنْ دَمِ الأَجْوَافِ مَدْمُومُ

العقم: ضرب من الوشي الأحمر، وهو ثوب أحمر يجلل به الهودج.
الزبيدي، التاج، «عقم». وقول زهير:

عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ وِرَادٍ حَوَاشِيهَا مُشَاكِهَةِ الدَّمِ

شرح شعره، ص١٩، ومثلهما أيضاً قول الآخر مشيراً إلى الزخارف على الهودج:

تَرَى الْوَدْعَ فِيهَا وَالرَّجَائِزَ زِينَةً بِأَعْنَاقِهَا مَعْقُودَةً كَالْعَثَاكِلِ

التاج، «عثكل». وعلى العموم، فمن معاني القرطاس، الأديم؛ اللسان، «قرطس».

obeikandl.com

اللفظتان «**هبهبية**» وهي الناقة التي تتحرك بسرعة كالريح الهبوب، في قول ابن أحمر؛ و«**ينوس**» يتحرك متذبذباً في قول الطرماح على تأكيد كون تلك «**التماثيل**» عند ابن أحمر هي «**أكاليل**» عند الطرماح، وليست هي الكتب.

ونتبين سوء الفهم في بعض الصور القديمة من شرح محققي شعر الراعي، قوله:

يَـزُرُّ أَكْـفَـالَـهَـا غَـيْـرَانُ مُـبْـتَـرِكٌ ... كَـالـلَّـوْحِ جُـرِّدَ دَفَّـاهُ مِـنَ الـزُّبُـرِ

فقالا: «الزبرة: الشعرة، وجمعها زبَر: الشعر المجتمع، وقيل: زبرة الأسد، الشعر على كاهله، وقيل: الزبرة موضع الكاهل على الكتفين»[١].

والصورة لا تحتمل هذا الشرح اللغوي، وإنما هي تشبيه احتكاك الفحل بعجز الناقةُ، باللوح الذي يكتب عليه، وقد جُرد، حُكَّ، من الكتابة، أي كتابة الزبور.

---

(١) شعر الراعي، ص ١٠٩.

الفصل الخامس

حماد الراوية والتدوين

كتاب الأنصار

أما ما يقال عن عثور حماد الراوية على كتاب للأنصار، فإن الخبر نفسه يفصح عن طبيعته، إذ يقول:

«كان حماد الراوية في أول أمره يتشطر، وصحب الصعاليك واللصوص، فنقب ليلة على رجل، فأخذ ماله، وكان فيه جزء من شعر الأنصار، فقرأه حماد، فاستحلاه وتحفظه، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس، ولغات العرب بعد ذلك، وترك ما كان عليه، فبلغ في العلم ما بلغ»(1).

فالخبر لم يأت إلا لتفسير ذلك التوجه الذي دفع برجل غير عربي، إلى طلب علم العرب، حتى «**بلغ في العلم ما بلغ**».

ومع هذا، فليس هناك ما يحول دون وجود مُدَوَّنات محدودة، قد تكون سابقة على هذا العصر الذي برز فيه حماد (ولد سنة ٧٥هـ)، أي العصر الأموي، ولعل شعر الأنصار يُعَد الأنموذج المرحلي من نماذج بدايات التدوين، مع ملاحظة صغر حجم هذه المدونات، فهو كما جاء في الخبر: «**جزء من شعر الأنصار**»، فليس هو حتى كتاب، وإنما هو جزء من كتاب، كما هو متوقع من طبيعة التدوين ومادته في

---

(١) الأغاني، جـ٦، ص٢٣.

obeikandl.com

المراحل الأولى من قيام الدولة الإسلامية. ولعل هذا الجزء يشبه إلى حد بعيد، ذلك «**الكتاب**»، الذي وُجدت فيه أبيات أبي جلدة.

كتب قريش وثقيف وبلي... إلخ

وهناك خبر آخر أورده أبو الفرج يتصل بحماد، يقول فيه حماد:

«أرسل إليّ الوليد بن يزيد... فقلت: لا يسألني إلا عن طرفيه: قريش وثقيف»[1].

وهنا نكون قد قطعنا شوطاً أبعد من ذي قبل، فنحن هنا أمام «**كتاب**»، بل «**كتابي قريش وثقيف**»، مع التنبه إلى أن حماداً كان يقول هذا، في عصر الوليد بن يزيد (١٢٥هـ ـ ١٢٦هـ)، أي بعد أن قطعت الكتابة، منذ أن جاء الإسلام، قرناً وربع قرن، وفي ظل دولة نشطت فيها الحركة الثقافية الأدبية، وأقبل الناس فيها على التعليم. وعوضاً عن أن يكون لنا في هذا العصر: «**جزء من شعر**»، أصبح لدينا: «**كتاب قريش**»، و«**كتاب ثقيف**»، و«**كتاب بلي**».... إلخ.

كتاب حماد

أما الخبر الذي أورده ابن النديم، وهو:

«جمع ديوان العرب، وأشعارها، وأخبارها، وأنسابها، ولغاتها، الوليدُ بن يزيد بن عبد الملك، ورد الديوان إلى حمَّاد وجَنَّاد»[2].

فهو موضع نظر، لأنه يحتمل عدة توجيهات، فهو يقول: «**جمع الوليد... ورد الكتاب إلى حماد وجناد**»، مما يشير إلى عدة أمور:

---

(١) المصدر نفسه، ص٨٩.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص١٠٣. ونحن نتحفظ في قبول تدوين عبيد بن شرية، الذي احتج به الأسد، مصادر، ص١٥٩. إذ يتعارض هذا مع قبول نوع من التدوين الذي تُوسع فيه فيما بعد.

١ ـ أن الوليد بن يزيد (ت١٢٦هـ)، هو الذي جمع الكتاب.

٢ ـ أن الوليد استعار الكتاب من حماد وجناد، ثم رده إليهما، فهو مَن عَمَلُهما.

٣ ـ أن حماداً وجناداً اجتمعا على امتلاك الكتاب.

فإذا كان الأمر الأول، فهو احتمال وارد إلى حد ما، ولكن ما علاقة حماد وجناد بإيداع الكتاب لديهما، وهو الذي يستقدم حماداً لإنشاده، ويطلب منه الاستماع إلى محفوظه مفاجأة، دون سابق إعداد واستعداد؟!

ومهما تكن التناقضات في هذا الخبر، فإنه يثبت أن هناك كتاباً يحتوي على أشعار العرب، ولعله يكون أكبر حجماً من كتاب قريش أو ثقيف مثلاً، وربما كان ذلك بتشجيع من السلطات الرسمية، مثلما كان خالد بن الهياج يكتب الشعر وغيره، بإيعاز من الخليفة الوليد بن عبد الملك....[1].

وربما فسَّر هذا الخبر ما قاله ابن سلام:

«جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية»[2]، فجملة **«جمع»**، تعني **«روى»**. ولعل ابن النديم استقى الخبر من ابن سلام، ثم أضاف إليه ما استجد لديه من معلومات. وأياً كان الأمر، فإن هذا يقدم دعماً للخبر السابق، بانشغال رجل محب للشعر بتدوين الشعر وجمعه.

ثم إنّ مما تجدر الإشارة إليه أن حماداً كان يعتمد على الذاكرة، ولذلك أُطلق عليه لقب: **«الراوية»**، لسعة حفظه. وفي الخبر السابق ما يؤكد ذلك، إذ قال: **«سألني عن أشعار بلي»**، فهو لم ينظر في تلك

(١) المصدر نفسه، ص ص٩ ـ ١٠.

(٢) ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ص٤٠.

اللحظة في **«كتاب بلي»**، وإنما أنشده من محفوظه. وفيما عدا هذه الحالة التي ذُكر فيها الكتاب، فإن حماداً كان دائماً يقف باعتزاز لينشد من ذاكرته، حتى لو كان الأمر أمر مفاجأة[1].

(١) انظر على سبيل المثال، الأصفهان، الأغاني، ج١٦، ص١١٩.

وتساءل الأسد، مصادر، ص١٥٧، عن العبارة التي أوردها ابن النديم، الفهرست، ص١٠٤: **«ولم نر لحماد كتاباً، وإنما روى الناس عنه، وصنفت الكتب بعده»**، فقال: «ولذلك كان عجيباً أن يقول ابن النديم: «ولم نر...»»، واستشهد على ذلك بأبي حاتم السجستاني الذي ذكر أنه نظر في كتاب حماد.

وهذه بعض إيهامات الأسد، لأن حماداً، حقاً، لم يترك كتاباً، وإنما كان يُملي إملاءاته الخاصة به، وكان الهيثم بن عدي صاحبه وراويته، انظر الأغاني، ج٦، ص٦٨. ولقد قام تلامذة حماد من بعده، فجمعوا إملاءاته في الكتاب المعروف بـ **«كتاب حماد الراوية»**. أما الكتب التي كانت بحوزته، زمن الوليد بن عبد الملك، فلعل عوادي الزمن عدت عليها نتيجة التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، بعد مجيء الدولة العباسية، خاصة أنها، فيما يبدو، كانت نسخاً يتيمة، وإضافة إلى ذلك، فلعل حماداً كان يستظهرها حفظاً، ثم يرويها بدلاً من قراءتها، ومهما يكن، فعبارة ابن النديم لا تتوجه إلا للكتاب المعروف عنه، والذي قلنا إنه لم يدونه، بل دونه تلامذته من بعده.

وانظر كتاب: «حماد الراوية بين الوهم والحقيقة».

obeikandl.com

الفصل السادس
مفهوم الكِتاب

لفظة «الكتاب»

إذا تجاوزنا عن كل ما مضى، فسنجد أن الشاعر الجاهلي كان يورد ذكر الكتابة أو أدواتها أو لفظة **«الكتاب»**... إلخ، من غير أن نتبين ممارسته الحقة للكتابة، أو استعانته بسواه لكتابة شعره. ولعلنا نجد مصداق ذلك في القول الذي يُستدل به على أنه شاهد على وجود كِتاب عند الجاهليين، وهو قول معقل بن خويلد:

وَإِنِّي كَمَا قَالَ مُمْلِي الْكِتَا بِ فِي الرَّقِّ إِذْ خَطَّهُ الْكَاتِبُ
يَرَى الشَّاهِدُ الْحَاضِرُ الْمُطْمَئِنُّ مِنَ الأَمْرِ مَا لاَ يَرَى الْغَائِبُ(١)

فهو يذكر الكتابة فعلاً، ولكنه لا يحددها، وهو إنما يذكر قولاً، ولا يذكر كتابة شعر، كما أنه لا يعني كتاباً بعينه، إذ لا يتصور أن يحتفظ بكتاب من رق في فترة جاهلية معروفة أوضاعها الاجتماعية، فهو إذن رق واحد، وليس كتاباً كما قد نفهم. وعلى هذا النحو يمكن أن نوجه قول بشر بن أبي خازم:

وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمٍ أَحَقُّ الْخَيْلِ بِالرَّكْضِ الْمُعَارُ(٢)

الذي يظن من يظن أنه يعني **(الكِتاب)** بعينه، وأنه كانت هناك

---

(١) السكري، شرح أشعار الهذليين، مج١، ص٩٢.

(٢) شرح المفضليات، ص٦٧٦.

كتب لقريش، وثقيف وتميم[1]، فهو لا يعدو المعنى المجازي للكتاب، أي الأخبار والأقوال الشفوية. كما سيتضح لنا بعد حين.

وانطلاقاً من ذلك، فإنه إذا تشبثنا بأن الكتاب في قول بشر بن أبي خازم السابق **«كتاب بني تميم»**، هو الكتاب بعينه، وأن معنى البيت كما قال المبرد: **«وجدوا هذه اللفظة مكتوبة»**[2] رغم أن هناك رواية أخرى تنسب الكتاب إلى غير تميم أيضاً[3]، وكلتا القبيلتين بدوية، فإننا في المقابل نفترض أن المادة التي تكوَّن منها ذلك الكتاب محدودة، أي إنها لا تستوعب إلا جزءاً يسيراً من الكتابة، أو على تعبير المبرد **«هذه اللفظة»** وقد تكون مادته على سبيل المثال مادة المهرق: أي قماش أبيض يصقل ويكتب فيه الكتب والعهود، وما أرادوا إبقاءه على الدهر[4]، أي إنه لا يحتوي إلا على أمثال العهود والمواثيق، أي: النثر، وليس الشعر، أي إنه نوع من أنواع الكتابة الرسمية الموجزة. وهو رأي أكده الجاحظ قبل ذلك حين قال:

«والمهارق ليس يراد بها الصحف والكتب، ولا يقال للكتب: مهارق، حتى تكون كتب دين. أو كتب عهود وميثاق وأمان»[5].

ويضاف إلى هذا استخدام الكتابة في الأغراض اليومية والتجارية، كما هو الحال في مكة والحجاز بشكل عام، أو الأحوال الخاصة، كما مر بنا من كتابة الفزاري إلى قومه، يحذرهم من غزو الملك.

وعلى هذا الأساس يمكن قبول كون الجاهليين قد دونوا شيئاً

---

(١) الجندي، تاريخ الأدب، ص ص١٤١ ـ ١٤٢.
(٢) المبرد، الكامل، جـ٢، ص٥٣.
(٣) التاج، «غير».
(٤) المرزوقي، شرح الحماسة، مجـ٤، ص١٧٤٥.
(٥) الجاحظ، الحيوان، مجـ١، ص٧٠؛ وانظر: التاج، «هرق»، «صك».

من الأمثال[1] حسب توجيه بيتي معقل بن خويلد السابقين، وحسب توجيه بيت بشر وهو ما قد يتفق مع كيفية الكتابة في ذلك العصر، كما هو واضح. ومع ذلك فإننا ما زلنا نميل إلى أن «**الكتاب**» ـ حتى حسب مفهوم بشر بن أبي خازم ومعقل بن أبي خويلد في البيتين اللذين قد يشيران إلى «**المثل**» ـ لا يعدو المعنى المجازي للكتاب، أي: المآثر والأمجاد، وليس أدل على هذا المعنى من قول الفرزدق، مستخدماً كلمة «**كتاب**»؛ وهو يعني به تلك المعاني نفسها حيث ورث مجد الشعر الذين خلّفه الشعراء الذين ذكرهم. فقال:

وَالْـجَـعْـفَـرِيُّ وَكَـانَ بِـشْـرٌ قَـبْـلَـهُ   لِي مِنْ قَصَائِدِهِ الْكِتَابُ الْمُجْمَلُ

ويعني بالجعفري، لبيداً، ثم قال ذاكراً «**الكتاب**» أيضاً:

دَفَـعُـوا إِلَـيَّ كِـتَـابَـهُـنَّ وَصِـيَّـةً   فَـوَرِثْـتُـهُـنَّ كَـأَنَّـهُـنَّ الْـجَـنْـدَلُ[2]

وهنا لن نسمح لخيالنا بالجموح، فنفسر «**الكتاب**» بغير هذا التفسير، فنتصور أنه كانت بين يدي الفرزدق مجموعات شعرية لشعراء جاهليين، أو نسخ من دواوينهم[3]. بل إن ذكر دغفل النسابة، وذكر الصحيفة كذلك، لا يعنيان إلا ذلك الفخر بالأمجاد والأنساب في قوله:

أَوْصَـى عَـشِـيَّـةَ حِـيـنَ فَـارَقَ رَهْـطَـهُ   عِـنْـدَ الـشَّـهَـادَةِ فِي الـصَّـحِـيـفَـةِ دَغْـفَـلُ

هذا على تصور كتابة الوصية في الإسلام في صحيفة، أي إن

---

(١) زلهايم، الأمثال العربية القديمة، ص ص٤٤، ٦٤.

(٢) ديوانه، جـ٢، ص ص١٥٩ ـ ١٦٠؛ وانظر: القصيدة ص ص١٥٥ ـ ١٦١.

(٣) الأسد، مصادر، ص١٦٠؛ وانظر: ص٢٦٣، بل لقد غالى الأسد في رأيه حين زعم أن قول معقل بن خويلد السابق: «وإني كما قال مملي الكتاب...» يعني: «أن هذا الشاعر قد قرأ بيته الثاني بهذه الألفاظ... في كتاب من كتب الشعر أو الأخبار الجاهلية ثم اقتبسه وضمنه قصيدته»، ص١٦٣.

obeikandl.com

استخدامها هنا لا يخرج عن الاستخدام المجازي الذي عرفناه سابقاً. ويدل على أن ما خلفه أولئك الشعراء كان موروثاً شفهياً، وليس مكتوباً، قوله في بداية تعدادهم:

وَهَبَ الْقَصَائِدَ لِي النَّوَابِغُ إذْ مَضَوْا وَأَبُو يَزِيدَ وَذُو الْقُرُوحِ وَجَرْوَلُ

فهو قد ورث ما خلفوه من شعر مروي، وليس مكتوباً اختصوه به، أي إنه ذو القِدْح المُعَلَّى في الشعر، وليس جريراً أو غيره، ممن يراهم دونه؛ فهم قد أوصوا له بالشعر، فكتبوا له وصيته، ودفعوها إليه. وهناك فرق كبير بين «**الوصية**» و«**الكتاب**». وفي جمع هؤلاء الشعراء في «**وصية**» واحدة وليس «**وصايا**»، دليل آخر على النقل الشفهي، والمعنى المجازي للكتاب، بل للوصية نفسها التي تعني ههنا: القول المنقول. والفرزدق كما هو واضح يفتخر بأن كل هؤلاء الشعراء تركوا له تلك الآثار، ولكن هذا لا يعني أن شيئاً من الأنساب أصبح يُكتب في هذا الوقت، فهذا الفرزدق يمضي مع كاتبه ابن مَتويه إلى بني الرباب ليكتب عنهم مثالب بني جعفر بن كلاب، ثم يضمنها قصيدته التي يقول فيها:

وَنُبِّئْتُ ذَا الأَهْدَامِ يَعْوِي وَدُونَهُ مِنَ الشَّامِ زُرَّاعَاتُهَا وَقُصُورُهَا[1]

أما كتابة **الوصية** في هذا العصر، وكما يقول: **الكلمة نفسها**، فنجده في قول الفرزدق نفسه لابنه لبطة: ***«ابغني كتاباً أكتب فيه وصيتي! فأتيته بكتاب، فكتب وصيته: أروني من يقوم لكم مقامي»***[2]. وهو اتجاه أصبح معروفاً، وتؤيده الدلائل الثابتة، مما يحتمل كتابة الشعر وغيره في هذه الفترة، كما مر بنا.

(١) أبو عبيدة، نقائض، ج٢، ص٩٠٨. وانظر القصيدة في ديوان الفرزدق، ج١، ص ص٣٦٢ ـ ٣٧٠. وعدد أبياتها ٩٢ بيتاً.

(٢) الأغاني، ج٢، ص٤٠٩.

=

وإذا عدنا مرة أخرى، لبيت معقل بن خويلد، فإنا لا نرى فيه إشكالاً على الإطلاق، إنه لا ينقل ما في الكتاب، بل ينقل حديث الكاتب الشخصي، في معزل عن قيامه بالكتابة، وما هو مكتوب في الأصل؛ أي: قال مملي الكتاب، يرى الشاهد...، وهو يكتب ما يَهُم بكتابته. وفي مثل هذا يقول حسان بن ثابت:

حَدَّثَ الشَّاهِدُ مِن قَوْلِهِ   بِالَّذِي يُخْفِي لَنَا الغَائِبُ(1)

= أَرُونِي مَنْ يَقُومُ لَكُمْ مَقَامِي   إِذَا مَا الأَمْرُ جَلَّ عَنِ الخِطَابِ

وبعده بيت آخر هو:

إِلَى مَنْ تَفْزَعُونَ إِذَا حَثَوْتُمْ   بِأَيْدِيكُمْ عَلَيَّ مِنَ التُّرَابِ

ديوان الفرزدق: ج١، ص٩٥.

(١) ديوانه، ج١، ص٢٨٢.

الفصل السابع
آراء القدماء

ابن سلام

وبعد، فهذا ابن سلام يقول عن العرب:

«لم يؤلوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب» [1].

الجاحظ

وهذا الجاحظ عندما تحدث عن الكتابة، لم يشر إلى الكتابة عند العرب، بل قال:

«العرب أوعى لما تسمع، وأحفظ لما تأتي، ولها أشعار تقيد عليها مآثرها، وتخلد لها محاسنها، وجرت من ذلك في إسلامها على مثل عادتها في جاهليتها» [2].

ويقول كذلك:

«وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى، وكان ذ لك هو ديوانها» [3].

---

(١) ابن سلام، طبقات، ص٢٢ ولكن الأسد في مصادره، ص٦٢٧، يتجرأ، فيقول عن هذا القول: «باطل»، ويقول عنه كذلك: «الباطل الذي لم يعد نشك في بطلانه وفساده» وكل ذلك دفعاً لرفض كتابة الشعر في العصر الجاهلي وتدوينه، ولو عاد الأسد إلى نفسه، ولم يندفع وراء عواطفه، لاستمع إلى ابن سلام، ورضي بكلام الجاحظ، واقتنع برأي ابن حزم، وسلم بحكم ابن منظور.

(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، جـ٣، ص ٣٦٦.

(٣) الجاحظ، الحيوان، جـ١، ص٧٢.

obeikandi.com

وقال أيضاً:

«تقييد المآثر، إذ لم يكن ذلك من عادة العجم، ولا كان يحفظ ذلك معروفاً لسوى العرب، ونحن نرتبطها بالشعر المقفى، ونصلها بحفظ الأميين، الذين لا يتكلمون على الكتب المدونة، والخطوط المطرسة»(١).

وقال حمزة الأصبهاني عن الكتابة العربية بعد أن بين أن الكتابة العربية حديثة العهد، تعود إلى فترة حرب بن أبي سفيان، جد معاوية: ***«فحدوث الكتابة للعرب قبل الإسلام صحيح، يؤيده حدوث آلات أخرى لهم، لم تكن من قبل منها: الخطابة والبلاغة وقول الشعر، فإن هذه الأشياء كلها قريبة من ميلاد إقبال دولتهم، وقد كانوا غبروا بباديتهم الدهر الأطول، وهم أميون لا يقرؤون، ولا يكتبون»***(٢).

ابن حزم

وقال ابن حزم:

«لم يكن للعرب كتاب؛ وإنما بقي من أشعارها شعرُ من أدرك رواته الإسلامَ فقط»(٣).

وفي كل هذا الدليل الحاسم على مجمل ما ذهبنا إليه، وهو أن العرب لم تستعمل الكتابة في الشعر ألبتة. وإنما كانوا يعتمدون على الرواية الشفوية فقط، ولولا الإسلام، لما وصل إلينا حتى أقل القليل مما خلفته الجاهلية، ولخضع شعر الشعراء المشاهير، في العصور اللاحقة ـ أمثال الأخطل والفرزدق وجرير وذي الرمة ـ لِما خضع له شعر أجدادهم من عظماء الشعراء والمبرزين منهم.

(١) الجاحظ، رسائل، «مناقب الترك»، ج٢، ص ص٢١ ـ ٢٢.
(٢) الأصبهاني، التنبيه، ص ص١٩ ـ ٢٠.
(٣) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص٤٥٦.

obeikandi.com

ابن خلدون

ويمكن تلخيص كل هذا الجدال في قول ابن خلدون:

«إن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية»[1].

ابن منظور

ونختتم هذه القضية بقول ابن منظور، وإن كان فيه تعميم، لكنه على الأقل، ينطبق على ما نذهب إليه في نفي كتابة الشعر:

«قيل للعرب: الأميين، لأن الكتابة فيهم عزيزة أو عديمة».

وقوله:

«أمة العرب لم تكن تكتب، ولا تقرأ المكتوب»[2].

كما قال: إن معنى الكاتب هو العالم، وأنه نادر بين العرب، وذكر عن رسالة للنبي ﷺ جاء فيها ذكر الكاتب:

«وفي كتابه إلى أهل اليمن: قد بعثت إليكم كاتباً من أصحابي»، أراد عالماً، سمي به، لأن الغالب على من كان يعرف الكتابة، أن عنده العلم والمعرفة، وكان الكاتب عندهم عزيزاً، وفيهم قليلاً»[3].

وقد عرف بهاء الدين العاملي الأمي بأنه ***«من لا يكتب، منسوب إلى أمة العرب، المشهورين بعدم الخط والكتابة»***[4].

---

(١) المقدمة، ص٤٣٩.

(٢) اللسان، «أمم».

(٣) المصدر نفسه، كتب.

(٤) الكشكول، جـ٢ ص٣٩٣.

وانظر، ابن عاشور، تفسير التحرير، جـ٢٨، ص ص٢٠٧ ـ ٢٠٨.

obeikandi.com

الفصل الثامن
الاتجاه العام المعاصر
حول كتابة الشعر

آراء العلماء المعاصرين

ونخلص بعدئذ إلى اتفاق مع اتجاه الرأي العلمي المعاصر عند بعض العلماء، ممن يتحفظون في كتابة الشعر في العصر الجاهلي، مثل:

المسلوت

الذي يقول: «نجزم بأن هؤلاء لم يعرفوا الكتابة ولم يتخذوها أداة لحفظ الشعر والإبقاء عليه»[١].

الزبيدي

الذي يقول: «ومما يؤكد أن نظم الشعر وروايته قبل الإسلام كانا قد قاما على المشافهة دون الكتابة هو أن الخطوط التي عرفها العرب آنذاك لم تكن تصلح لتدوين الشعر»[٢].

السامرائي

يقول السامرائي في إشارته إلى ناصر الدين الأسد:

---

(١) المسلوت، نظرية، ص١٦.

(٢) الزبيدي، مقدمة، ص٤٩، وقد سبق لبلاشير أن قرر أن طريقة النظم عند الشاعر الجاهلي هي طريقة الرواية الشفوية، لا الكتابة. تاريخ الأدب العربي، ص ص٩٣ ـ ٩٩.

obeikandl.com

«لقد اعتمد الدكتور على أبيات ما أظنها توصله إلى شيء من هذه الحدود الفنية»[١].

عبد الرحمن محمد

وهو يقول عنه كذلك:

«انطلق مثل غيره من الدارسين المحدثين... من نفس المنطلق الذي يؤمن بفكرة مسبقة يحشد لتأييدها نصوصاً وروايات يتعسف في تأويلها ويقسرها قسراً على مفهوم بعينه، ويؤسس على الخبر المفرد قاعدة عامة لا يحتملها الخبر نفسه ولا تبررها طبيعة الحياة القديمة»[٢].

الكتابة الدينية

تقول نابيا آبوت:

«تقبل الكاتبة لبعض الأسباب احتمالية أن الكتابة العربية كانت مستعملة في الأعمال الأدبية في عصور ما قبل الإسلام، خاصة بين العرب والنصارى في العراق وسورية، وعند المستوطنين المسيحيين واليهود الذين تحدثوا اللغة العربية في الجزيرة العربية نفسها»[٣]. وحتى لا يفهم من قولها: **«الأعمال الأدبية»**، الشعر، بينت أنها تقصد النثر، وبالذات الأعمال الدينية. وقد أشارت إلى **«مجلة لقمان»**، وقراءة سويد بن الصامت لها أمام الرسول ﷺ، كما أشارت إلى ورقة بن نوفل[٤]. وعلى العموم، فقد قالت:

---

(١) «العربية والكتابة»، ص٦٧.

(٢) الشعر الجاهلي، ص١٤٤. مع الأسف، فإن إبراهيم عبد الرحمن نفسه، طرح هذا الرأي، ولم يُفَصِّل فيه.

(٣) *Studies in Arabic Papyria, p.501.*

(٤) *Ibid, PP.5-6.*

«ومع ذلك، فإنه يبدو حتى من العرض القصير السابق أن أدب النثر الديني المكتوب باللغة العربية لم يكن بأية حال من الأحوال غريباً عن العرب قبل مجيء الإسلام»(١).

وهذا ما يذهب إليه أيضاً عرفان شهيد، فيما يتعلق بنصارى نجران(٢). كما يذهب جواد علي إلى أن التوراة كانت قد ترجمت إلى اللغة العربية(٣). ويمكن أن يضاف إلى أدب النثر الديني ما روي من أن وهب بن منبه قال: **«قرأت من كتاب الله اثنين وتسعين كتاباً»**(٤). **وما روي من أن أمية بن أبي الصلت: «كان قرأ الكتب المتقدمة من كتب الله جل وعز»**(٥). والذي كان مستعملاً للسريانية كثيراً، لأنه كان قد قرأ الكتب(٦).

وقول النابغة وهو يتحدث عن كتاب ديني للغساسنة ـ حسب رواية **«مجلتهم»** بدلاً من **«محلتهم»**:

مَـجَـلَّـتُـهُـمْ ذَاتُ الإِلـهِ وَدِيـنُـهُـمْ   قَوِيمٌ فَمَا يَرْجُونَ غَيْرَ الْعَوَاقِبِ(٧)

---

(١) *Ibid, p.6.*

(٢) *Shahid, The Martyrs of Najran: pp.10, 40, 62, 96-98, and esp. 242-50.*

علماً بأن رؤساء نجران «كانوا يتوارثون كتبا عندهم، فكلما مات رئيس منهم، فأفضت الرياسة إلى غيره، ختم على تلك الكتب خاتماً...»، ابن هشام السيرة، ج٢، ص ٢٢٣، مما يدل على أن الكتب التي يتوارثونها قديمة العهد، أي: إنها كتب بلغة غير اللغة العربية، وليس كما يذهب إليه عرفان شهيد.

(٣) جواد علي، المفصل، ج٦، ص٢٧٨.

(٤) الحميري، منتخبات في أخبار اليمن، ص١١٥. وقد قيل إن فاطمة بنت مر الخثعمية بمكة كانت قد قرأت الكتب؛ المفضل بن سلمة، الفاخر، ص ص١٦٦ ـ ١٦٧.

(٥) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، مج١، ص٤٥٩. وانظر عن ورقة بن نوفل: البغدادي، خزانة الأدب، ج٣، ص ص٣٩١ ـ ٣٩٤.

(٦) الجواليقي، المعرب، ص٣٨٣.

(٧) ديوانه، تحقيق ابن عاشور، ص٤٩.

ولكن، رغم ذلك، فإني أرى أنه حتى هذه الكتب، لم تكن باللغة العربية، وأن من يزعم القراءة منها كان ينقل أفكارها ويترجمها إلى اللغة العربية. أما لغة هذه الكتب، فهي إنْ كانت مسيحيةً، فهي: السريانية[1]، وهو ما ذهب إليه لويس شيخو ـ وإن فهم أن قول بشر بن أبي خازم السابق **(وجدنا في كتاب بني تميم) يعني الكتاب بعينه. ولكنه ليس كتاباً باللغة العربية، فقال:**

«ومن المرويات العديدة التي نقلها أول كتبة الإسلام على علاتها فأثبتوها بأسانيدها إلى بعض أهل الكتاب من نصارى ويهود... يظهر أنه شاعت في جزيرة العرب مصنفات شتى معظمها لبعض المبتدعين أو لكتبة مجهولين... وقد بقي منها أشياء في قصص الأنبياء للثعلبي وغيره، وفيها الغث والسمين. ومن هذه التآليف ما ورد ذكره في الشعر القديم ولا يعلم من أمره شيء كقول بشر بن أبي خازم، وقيل الطرماح، في كتاب بني تميم:

وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمِ ۝ أَحَقُّ الْخَيْلِ بِالرَّكْضِ الْمُعَارُ

وكانت بعض هذه التآليف مكتوبة بالسريانية والحبشية فوقف على مضامينها العرب ونقلوا أشياء منها خصوصاً من كتاب «مغارة الكنوز»[2].

أما إن كانت يهودية، فهي بالعبرانية، وهذا ما يذهب إليه أيضاً محمد الخضر حسين الذي يقول عن التوراة والإنجيل:

«إنهما لم يخرجا إلى لسان العرب بعد، ولا يقرؤهما إلا من درس العبرية»[3].

---

(١) بهنام، «العلاقات الجوهرية»، ص٢٣٦.

(٢) شيخو، النصرانية وآدابها، جا، ص ص٣٣٥ ـ ٣٣٦.

(٣) الخضر حسين، نقض كتاب، ص٢١٧.

وقد جاء في صحيح البخاري ما يُصَوِّب هذا الرأي، حيث يقول:

«كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام»(1).

وقد ذُكر أن الإنجيل نفسه كان مكتوباً بالعبرانية، وأن علماء من أمثال ورقة بن نوفل كان يقرؤها بهذه اللغة، فقيل:

«ورقة بن نوفل... كان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية»(2).

وقد ذكر الله تعالى في محكم كتابه، رداً على اتهام الكفار للنبي ﷺ بتعلم كتب أهل الكتاب: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ﴾ [النحل: ١٠٣](3). وهذا أصدق دليل على أن الكتب التي كانت بين أيدي المعاصرين للرسول ﷺ هي كتب بغير اللغة العربية، سواء أكان ذلك في مكة والمدينة أم في غيرهما من الحواضر العربية.

الكتابة الفنية

وأخيراً، فإن وجود أشكال مسرحية وموسيقى ورقص في جنوب الجزيرة العربية عند شعوب الدول التي تعاقبت هناك، مما ظل غير

---

(1) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، جـ١٧ ص١٣.

(2) البخاري، صحيح، كتاب بدء الوحي، جـ١، ص٣٨. أما ما جاء في جـ١٨، ص٢٠١ من أن ورقة بن نوفل: «كان يكتب الكتاب العربي، ويكتب من الإنجيل بالعربية»، فهو تصحيف للعبرانية بلا شك، كما تبين لنا. وانظر حاشية ص٣٨.

(3) القرطبي، الجامع، مج٥، ج١٠، ص ص١٧٧ ـ ١٧٨. وقد قيل إن النضر بن الحارث: «اشترى كتب الأعاجم: رستم واسفنديار»؛ القرطبي، الجامع، مج٧، ج١٤، ص٥٢.

obeikandi.com

مدون، ومروياً شفوياً - رغم وجود الكتابة[١] لديهم - لمما يدعم الرأي أن أحفادهم، أو جيرانهم العرب الشماليين كانوا على المنوال نفسه.

وإذا لم يثبت حتى الآن أن عرب الجنوب دونوا آثارهم الفنية، فمن المستبعد أن يكون إخوتهم أهل الشمال، الموغلون في البداوة، قد دونوا أشعارهم بلغات غير لغتهم العربية، وهو ما يذهب إليه فؤاد الخطيب، حيث يقول:

«فالمرقش الأكبر كتب شعره بالأحرف السريانية، والغساسنة قد دونوا أشعارهم وأخبارهم بالعبرية والرومية أو السريانية، وكان المناذرة مثلهم قد كتبوا الخط الآرامي»[٢].

وحيث إنه لا دليل على هذا القول عملياً، ورغم ذلك، فلا علاقة لنا بكتابة الشعر بلغة غير اللغة العربية، فالشاعر الجاهلي كان، كما بينا، يشير إلى غربة تلك الكتابة عنه.

الكتابة الرسمية والتجارية

إننا لنتفق مع ما ذهب إليه صلاح الدين المنجد، حينما قال:

«لقد كانوا في الجاهلية يكتبون الديون والأحلاف والهدنة، أي العهود والمواثيق»[٣].

فالكتابة من هذا النوع واضحة ثابتة في الشعر، حسب بعض التوجيهات، كما في قول الأعشى:

وَلاَ الْمَلِكُ النُّعْمَانُ يَوْمَ لَقِيتُهُ ... بِغِبْطَتِهِ يُعْطِي الْقُطُوطَ وَيَأْفِقُ

---

(١) *Petracek, Quellen und anfange, p.385.*

(٢) الخطيب، «صلة الجاهلية بالعالم القديم»، ص ص٤٨٩ - ٤٩٠.

(٣) المنجد، تاريخ الخط العربي، ص٢٣. وانظر إشارة الحارث بن حلزة إلى حلف ذي المجاز، النحاس، شرح القصائد التسع المشهورات، ج٢، ص٥٨٠.

وهو يعني بالقطوط: كتب الجوائز[1]. وكما في قول قيس بن الخطيم:

أَتَعْرِفُ رَسْماً كَاطِّرَادِ الْمَذَاهِبِ لِعَمْرَةَ وَحْشاً غَيْرَ مَوْقِفِ رَاكِبِ[2]

والمذاهب: ألواح مذهبة، وكتب مذهبة، كان يكتب فيها إلى الملوك، ولا يكلمون[3]، أو هي: جلود مذهبة بخطوط يرى بعضها في إثر بعض، فكأنها متتابعة[4]، ومنه قول النابغة الذبياني:

وَأَبْدَتْ سِوَاراً عَنْ وُشُومٍ كَأَنَّهَا بَقِيَّةُ أَلْوَاحٍ عَلَيْهِنَّ مُذْهَبُ[5]

وقد أشار عارق الطائي إلى العهد الذي كتبه عمرو بن هند إلى طيء، فقال:

فَإِنَّ نِسَاءَ غَيْرَ مَا قَالَ قَائِلٌ غَنِيمَةُ سُوءٍ وَسْطَهُنَّ مَهَارِقُهْ[6]

ولم تقتصر كتب الجوائز تلك، على القطوط، بل المهارق أيضاً، قال الأعشى:

رَبِّي كَرِيمٌ لاَ يُكَدِّرُ نِعْمَةً وَإِذَا تُنُوشِدَ فِي الْمَهَارِقِ أَنْشَدَا[7]

وقال عدي بن زيد:

فَأَيُّكُمْ لَمْ يَنَلْهُ عُرْفُ نَائِلِهِ دَثْراً سَوَاماً وَفِي الأَرْيَافِ أَوْصَارَا[8]

---

(١) القرطبي، الجامع، جـ٨، جـ٨، ص١٥٧.

(٢) الشمشاطي، الأنوار، ص٥٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٢.

(٤) التاج، «طرد».

(٥) الشمشاطي، الأنوار، ص٥٢؛ وانظر: ديوان النابغة، ابن عاشور، ص٥٨.

(٦) المرزوقي، شرح ديوان الحماسة، مج٤، ص١٧٤٤؛ وانظر: جـ٣، ص ص١٤٤٧، ١٤٦٧.

(٧) ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص٤٠١. وانظر: ديوان الأعشى، ص٢٢٩.

(٨) التاج، «وصر»، وانظر ديوان عدي، ص٥٥. الدثر: المال الكثير. السوام: =

والوصر: الصك الذي تكتب فيه السجلات، أي إنه أقطعكم كتب السجلات في الأرياف.

وقال الآخر:

رَاحَتْ رَكَائِبُهُمْ وَفِي أَكْوَارِهَا أَلْفَانِ مِن عَمٍّ الأَثِيلِ الوَاعِدِ
مَا إِنْ رَأَيْتُ ولاَ سَمِعْتُ بِأَرْكُبٍ حَمَلَتْ حَدَائِقَ كَالظَّلاَمِ الرَّاكِدِ

يصف قوماً زاروا ملكاً، فأقطعهم نخلاً وكتب لهم بها. فلما حملوا الكتب في رحالهم، فكأنهم حملوا النخل(١).

ومع ذلك، فما لغة هذه الكتب؟ أهي اللغة العربية، أو هي لغة أخرى رسمية؟ إنهم حقاً كتبوا الديون والعهود والأحلاف.. إلخ، مما تقتصر فيه الكتابة على أسطر قليلة معدودة، ولكن إذا شئنا التعميم، فإنا نجد أن أبا ذؤيب أشار في استشهادنا الأول إلى كتابة كاتب حميري دَيْنَه، في قوله: «**عرفت الديار كرقم الدواة...**»، أي إن كتابة الديون والعهود والأحلاف، قد تكون بلغة غير اللغة العربية الشمالية، وفي مناطق قليلة محدودة أيضاً؛ ذلك أن الله تعالى يوجه المسلمين إلى كتابة ديونهم، الأمر الذي يعني أنهم - وهم أهل مكة والمدينة - ووقت نزول هذه السورة، في المرحلة، لم يكونوا يفعلون ذلك إلا على قلة وضيق. يقول عز من قائل:

= الإبل الراعية.

وقال طفيل الغنوي يخاطب النعمان بن المنذر في حق سنان بن عائض الضبي:

أَلْجُرْمَ أَمْ جَنَى أَمْ لَمْ تَخُطُّوا لَهُ أَمْناً فَيُوجَدَ فِي الكِتَابِ

ديوانه، ص٩٠.

(١) الأشناندان، معاني الشعر، ص٨٥. العم: العظام الرؤوس من النخل. الأثيل: الموضع الذي كتب لهم فيه. الواعد: يعد بالخير.

وقال الممزق العبدي في الكفالة:

فَلاَ أَنَا مَوْلاَهُمْ وَلاَ فِي صَحِيفَةٍ كَفَلْتُ عَلَيْهِمْ وَالكَفَالَةُ تَعْتَقِي

تعتقي: تحبس على الوفاء بما كفل. الأصمعيات، ص١٦٦.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ ...﴾ ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾. ويؤكد الله العظيم ندرة الكتابة بين العرب، فيقول وهو أعز القائلين: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ...﴾ [البقرة: ٢٨٢ ـ ٢٨٣].

ونختتم هذه الدراسة بقول محمد لطفي جمعة، وهو من أشد أنصار صحة الشعر الجاهلي، وتأكيده على شفوية الرواية، وعلى أمية الجاهليين:

«كانت العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، فكان كل عربي يعلم بمقدار حفظه ووعيه، فتحمل ذاكرته ما يعرض له من الحوادث والمعاني، فكان العربي كتاباً يقظاً يسمع ويخزن ويروي، وكانت القبيلة سجلاً حياً منطوياً على الآثار والأخبار»(١).

وقد ذهب طه حسين قبله إلى رفض فكرة كتابة الشعر الجاهلي، فقال: «إن كثيراً جداً من الشعر القديم لم ينقل إلى الأجيال مكتوباً، وإنما نقلته الذاكرة»(٢). كما قال: «بعد أن عبث النسيان والزمان بما قد حفظ من شعر العرب في غير كتابة ولا تدوين»(٣)، ومن ذلك رفضه فكرة كتابة المعلقات(٤).

شولر

وأخيراً يقول المستشرق غريغور شولر عن فكرة تدوين الشعر

---

(١) الشهاب الراصد، ص٢٥٨؛ وانظر ص٢٦٩.

(٢) حديث الأربعاء، جـ١، ص٣١؛ وانظر رأيه في كتابة أبيات لبيد في الإسلام، ص٤٢.

(٣) في الأدب الجاهلي، ص٢٤٤.

(٤) المرجع نفسه، ص٢٠٤.

وجمعه من قِبَل الشاعر في العصر العباسي الأول، عصر العلماء وانتشار الكتابة حقيقة:

«لم تختلف رواية شعر العصر العباسي الأول اختلافاً بيناً عن رواية الشعر العربي القديم. فبشار وأبو العتاهية وأبو نواس، لم يجمعوا أشعارهم بأنفسهم، ولم يدونوها، إذ كانوا يعهدون بها أصلاً إلى الرواة، كما فعل الشعراء القدامى. ولم يصبح ضم الشعر مجموعاً في ديوان من قِبَل الشاعر إلا في حدود ما بعد الألف الأول الميلادي. وعلى سبيل المثال، فإن ديوان أبي نواس لم يدون إلا بعد مئة وخمسين سنة من وفاة الشاعر، ورغم ذلك، لدينا روايات متعددة للديوان نفسه»[١].

وذلك إضافة إلى رأي نابيا آبوت الذي مر معنا شيء منه.

وبعد، فها قد وضح لدينا أن الشاعر الجاهلي كان يصف الكتابة تقليداً ومحاكاة، وأن الظروف الحضارية للشعراء لم تكن مهيأة كي يتطور فن الكتابة ويتيسر استعماله. أما الخطوط الأخرى، بلغات أخرى فكانت تفوق قدرة الشاعر. كما كانت مقصورة ومحدودة على أجواء دينية، واستعمالات خاصة، ومن بين تلك الخطوط الخط المسند؛ أما النقلة الحضارية الفعلية، فقد كانت بمجيء الإسلام، حيث صرح الشعراء باستعمالهم للكتابة مباشرة أو غير مباشرة، وقد تم ذلك العمل تدريجياً وببطء شديد.

وهكذا توصّلنا هذه النتائج إلى الحقائق التالية:

---

(١) *Scholler, Die Anwendung.., S.232.*
وانظر *Goldziher, Some Notes on The Diwans of The Arabes & JRAS, pp. 325-334.*

أولاً:

مدى الصعوبة التي يواجهها الكاتب، لو حاول أن يكتب القصيدة الجاهلية.

ثانياً:

من الواضح أن الكتابات في مجالات الحياة الأخرى جد قصيرة، مما يدل على المعاناة التي يبذلها الكاتب في كتابتها، وهو أمر لا يساعد على القول بكتابة القصيدة أياً كان حجمها.

ثالثاً:

اقتصرت الكتابات في مجال غير الشعر على حالات خاصة بالحكام والسادة، ولم تكن عامة.

رابعاً:

وهي النقطة المهمة جداً ـ أن هذه الكتابات كانت على ندرتها، خاصة بالمناطق الحضرية في أطراف الجزيرة العربية (حران، زبد، أم الجمال)، وبالذات في الجزء الشمالي من الجزيرة، وإنْ استخدمت أيضاً في المدن الحجازية (مكة والطائف والمدينة) للأغراض اليومية والتجارية.

خامساً:

بدأت الكتابة الحقيقية للشعر مع ظهور الإسلام في شكل أبيات محدودة، ومع ذلك، فقد كانت نادرة، وفي حالات خاصة أغلبها رسمي، ثم تطورت شيئاً فشيئاً، حتى وجدنا الشعراء أنفسهم في العصر الأموي يحرصون على كتابة شيء من شعرهم، ومع ذلك، فقد كانت الرواية الشفوية هي الأساس، حتى مع ظهور الشاعر الكاتب في العصر العباسي.

obeikandi.com

سادساً:

أول كتاب ظهر في اللغة العربية، هو القرآن الكريم، وما سبقه من محاولات ليست إلا حالات خاصة من أدب النثر الديني، وهي حالات رغم ندرتها، ما زالت غير مؤكدة.

سابعاً:

كانت المحاولات الجادة الأولى لكتابة الشعر، في العصر الأموي، بطلب من الشاعر نفسه، ثم جاء دور علماء ذلك الزمان، الذين ربما صنفوا بعض المجاميع الصغيرة، ومع ذلك ظلت الرواية الشفوية هي الأساس حتى العصر العباسي، عندما اندفع العلماء يجمعون الشعر في مجموعات كبيرة.

obeikandl.com